

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

أنيس منصور

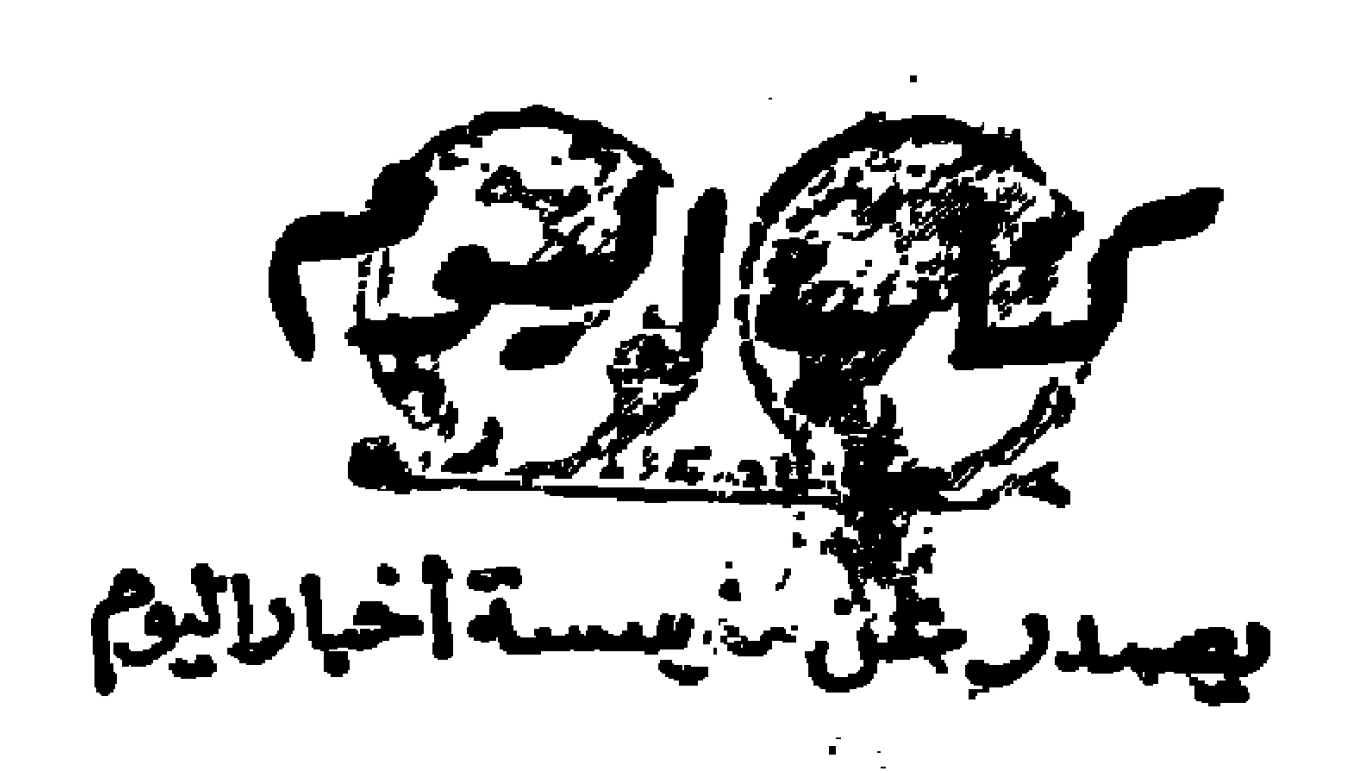
أطيب تحياتي من موسكو

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

العدد ٤١
رجب ١٣٩١ هـ
سبتمبر "أيلول" ١٩٧١ م

الإدارة : دار أخبار اليوم
٦ شارع الصحافة - القاهرة
ت ٧٧٧٧٧ سبعة خطوط



أطيب تحياتى من موسكو

أنيس منصور

فهـرس :



الغلاف والرسوم الداخلة للفنـــان مصطفى حسين ..

● ●

الاشراف الفنى ســـعد عارف

لعله إهداء!

« إلى التي لم تقرأ ولن تقرأ..
سطرًا واحدًا مما أكتب،
فهي لم تتعلم القراءة والكتابة،
ثم إنها قد ماتت
رحمها الله..
من عذاب القراءة..
ومن عناء الكتابة..
ومن الحياة..

.. إلى أمي! »

مقدمة

عادة سيئة
أن نرمي البحار
بالأحجار !





اول شيء تشعر به اذا سافرت الى أمريكا أو الى روسيا ان هناك جرحا خفيفا لكبريائك .. وان هذا الجرح قد حـــدث بمجرد ملامستك للارض . مع ان احدا لم يقصد ذلك . وليست فى نيـــة أحد أن يفعل ذلك .. أولا لانه لايوجــد مبرر . وثانيا لان احــدا لايدرى بك .. فأنت ضمن مئات الملايين من الناس من لونك ومن حجمك ومن بلدك ومن البلاد المجاورة لك ..

فاول ماتشعر به انك صــغير جدا .. وقد يشمل هذا الشعور بلدك ايضا .. فانت وبلدك صغيران أمام هذا المحيط الهائل من الناس والاشياء والمعانى .

كل شيء ضخم . وهذه الضخامة موجودة قبــل تشريفك لهذه البلاد . وستبقى بعـــد سفرك . وكل المطلوب منك هو أن تتوافق مع الجو وأن تعرف راسك من رجليك ..

اما رجلاك فدعهما الآن . وعليك ان تهتم براسك . فالذى نراه قد صنعه الناس من العدم .. ففى روسيا

هذه الارض كانت خرابا .احرقها وهدمها على رؤوسهم وأولادهم ونسائهم وآمالهم الالمان .. وقبـــل الالمان جيوش الحرب العالمية الاولى .. وقبلها نابليــون .. واثناء ذلك كله الحروب الاهلية .. وحركات الاستقلال .. فتحت هذا الجليد الذى يغطى الشوارع والسقوف والاشــجار والذى اســتعاره النــاس للامح وجوههم توجد نيران حقيقية ونيران ثورية ..

وجوه الناس مثلا .. هؤلاء الروس لايمكن أن تحدد ملامحهم . ففيهم الابيض والاصفر والاسمر والاحمر.. وكلهم أبناء دولة واحــدة . ففى بلادهم ١٨ جمهورية وعشرات اللغات والقوميات . ولكنهم جميعا سوفيت. ووجوه الناس جامدة .. أو رخامية أو زجاجيــة .. ولنفرض أن هذه هى صــفاتهم التى بدت لك من أول لحظة . فما الذى يمكن أن تستنتجه من مجرد النظر الى وجوه الناس . ما الذى يمكن أن تقــوله عن الروس اذا وقفت فى المطـــــار وضربت بعينك ســــهما الى فتاة جميلة . وكأن السهم لا خرج من عينك ولا دخــل فيها .. اذا ابتسمت لاى شاب أو رجل فكأنك مافعلت شيئا ! ما الذى يمكن أن تصف به الروس على أثر هذه المحاولة التى تبدو بريئة ؟

تقول فعلا : ماهذا البرود ؟ ما هذا الجمود ؟ الشعب كله لايفهم النكتة ولا يحب المرح ولا يرحب بالاجانب !

فى استطاعتك أن تقول ماتشاء ..

ولكن ما للذى يمكن أن يفعله انســـــان لايعرفك . ولا يدرى بك طبعا . ولا يعرف مايدور حائرا فى نفسك. ثم انه مشغول عنك . وهذا طبيعى . وأنت لاتعرف كلمة

روسية واحدة وهو لا يعرف كلمة عربية .. ولو عرفت كلمة .. مائة كلمة فما الذى تستطيع ن يؤديه لك وليس من اختصاصه أن يستقبلك او يرحب بك . لابد ان هناك اناسا آخرين ، أنت جزء من أعمالهم وأعبائهم.

ولكن الذى يجعل هذه المعانى تدور فى رأسى فى روسيا وأمريكا هو شعورى بالضآلة والضياع وان احدا لايدرى بى . وهذا طبيعى . ولم تنقذنى معرفتى بالانجليزية فى امريكا ، ولم يغرقنى جهلى بالروسية فى موسكو ..

ولكن لاتكادنجد الشخص المناسب او يجدك الشخص المناسب حتى تتغير الدنيا أمام عينيك .. وسوف تجد ان الذين يمرون بسرعة كأنهم آلات .. هم بالفعل يعملون ضمن جهاز كبير دقيق .ولولا هذا العمل الذى لاينقطع ماوجدت طائرة ولا مطارا ولا فندقا فخما . ولا وجدت طعاما ولا شرابا . ولا وجدت صداقة فى انتظارك أنت وشعبك وعشرات الشعوب الاخرى ..ومع الدفء والكلام والحوار تجد انك دخلت دون أن تدرى عضوا فى أسرة ضخمة طويلة عريضة عميقة شديدة التعقيد بالعلم والخرافات والفلسفات والاحداث والمعارك والاغانى والتماثيل ومتاحف الملوك وتماثيل الجنود ، وتشعر بالضياع مرة أخرى .. ولكنه ضياع انسان فى بنك ملىء بالاوراق النقدية والذهب .. لا تستطيع أن تأخذ ولا تستطيع أن تترك .. ومهما أخذت فسوف يبقى الكثير ، واذا لم تأخذ فسيبقى فى نفسك الكثير من الحسرة والندم !

واذا كان الناس فى مواجهة الجليد الذى اعتادوا عليه ، يرتدون الثقيل من اغطية الراس والاحذية

والبلاطي ، فانهم في بيوتهم الدافئــة يتخففون من كل شيء .. ومن النظرة الجامدة ، والوجــه الرخامي .. فاذا أنت أمام أناس ظرفاء محبين للنكتة ومخترعين لها ايضا . وفي نفس الوقت لايرفعون عيونهم عن النظر الى الماضي والمســـتقبل فهم يعرفون جيـــدا ماضيهم ، ومؤمنون تماما بمستقبلهم .. ويؤمنون بأن المستقبل للاغلبية من الناس .. الذين يعملون .. ولهم الحق في الحياة . ولم تكن الحياة حقا لهم قبل ذلك .. تسمع ذلك وتراه بألف لغة وشكل وحجم ومناسبة . وفي كل كتاب وكل مسرحية وكل لوحة وكل اغنية ..

ومهما ذهبت شرقا وغربا في روســيا ، فأنت لاترى الا القليل . ان الروس أنفسهم لايعرفون بلادهم . فلا يتسع عمر الواحد منهم لزيارة معالم بلاده . فالبـــلاد واسعة .والروس يقرأون عنها كما نقرأ نحن تماما .. والاتساع والضخامة يجعلان الروسي يشــعر بالمناعة والقوة . فأين ذهب نابليون وأين ذهب جنكيز خان ؟ وأين راح هتلر .. كل هؤلاء ابتلعتهم الارض الواسعة، ودفنهم الاصرار على النصر .. وقد أصروا وانتصروا . وتعبوا وجنوا ثمرات تعبهم .. وسوف يحققون ماهــو أكثر . فالشعب كله يعمل . هذه حقيقـــة . على كل المستويات . هذه بديهية . وكل ماهو ضروري لكل انسان متوافر . وكل ماهو ترف ليس متيسرا .وهذا حقيقي. ولكن عنـــدهم أمل بأن تكون الكماليـــات متوافرة كالضروريات .. والروس متخمون بكؤوس الايمـــان بالمستقبل ـ كالامريكان تماما !

والروسي فخور ببلاده . والشاعر الروسي لرمنتوف عندما قارنوه بالشــاعر الانجليزي بيرون قال : لست

كالشاعر بيرون .. أنا مختلف عنه .. ومازلت مجهولا ، انني مثله منبوذ فقط .. ولكن أهم من ذلك أن لى قلبا روسيا !

وهذا يكفيه ..

والشـــعراء الروس كثـــيرا مابكوا على بلادهم وما أصابها ، وأثاروا الشعب على الظلم .. من اجـل ذلك ارتفعت تماثيلهم فى كل مكان .. امتنانا من الشعب لهم، وعرفانا بفضلهم .. وتقديسا لكل من قال أو فعـــل شيئا لكل الناس ..

والشاعر تودجست فى القرن التاسع عشر قد وصف روسيا بلهجته الحزينة فقال :

« الفلاحون نيام كالموتى ، يزرعون ويحصدون وهم نيام ، ثم ينامون بعد ذلك .. والذى يضرب الفلاح على رأسه نائم أيضا ، والذى يتلقى الضربات أكثر نوما .. الغربان هى التى لم تعرف النوم فى خرائب روسيا .. ان روسيا تمسك زجاجة الخمر وتتجه برأســـها الى القطب الشمالى ، وتمدد ساقيها فى القوقاز ، وتنام نوما لانهاية له .. هذه هى أرضنا المقدسة روسيا » .

ونامت روســـيا كثيرا على صدور الشــــعراء وفى قصائدهم .. وكانها ادخرت النوم الطويل للســـــهر الطويل بعد ذلك .. فصحت فى كل مكان .. وكل موقع .. وارتفعت وعلت .. ودارت حول الارض وحـــول الكواكب .. وأصبحت دولة عظمى ..

وأنت لايمكن أن تعرف من بلادها الا القليل .. فأنت تلمس روسيا فقط .. مهما طالت صلتكبها ، أو اقامتك

فيها .. فاهلها انفسهم يلمسونها ولا يعرفون عنهـا الا القليل ، فلا احد استطاع ان يعرف الكثير عن هذا الكثير جدا فى كل شىء .. وفى كل ميدان .. ولكنها رغم ذلك تبهرك وتثيرك وتذهلك ..

وكل ماتستطيع أن تقوله : انها مختلفة !

وتسأل نفسك : مختلفة عن ماذا ؟

ويكون جوابك : مختلفة عن كل البلاد التى رايتهـا او سمعت عنها .

وهذا طبيعى . فليس من الضرورى أن يتشابه كل الناس وكل البـلاد ، مهما اختلفت الظروف . أو مهما اختلفت احداث التاريخ . ولكن ليس من الضرورى ان يكون اختلافها خصما من رصيدها لديك .. وانما هى مختلفة .. اختلاف شجرة عن شجرة أو ماركة سيارة عن ماركة سيارة أخرى .. او اختلافك عن واحد مثلك فى مركزك وفى مستقبلك ..

وكأى انسان غريب عن روسيا تصطدم بأشياء غريبة .. وقد وقفت طويلا عند الاشياء الغريبة .. اننى أردت أن أدور حولها .. واهزها لعلى أنا أتحرك .. وحاولت أن أضحك . .ولا يزال الضحك نوعا من السمو الروحى . فالذى يضحك على شىء يشعر انه أحسن منه . .وانه لايمكن أن يرتكب حمـاقة أن يفعـــل نفس الشىء .. والضحك كالشمس .. والبيت الذى تدخله الشمس لايدخله الطبيب .. فقد اردت ان أكون طبيب نفسى .. وطبيبك أحيانا !

وهذه هى المرة الثالثة التى أرى فيها روسيا ـ هذه

العبارة ليست دقيقة . فان احدا لا يستطيع ، ولم يستطع احد ـ أن يرى روسيا . ولكن لا اجد كلمة اخرى بدلا من كلمة « يرى » هذه .. وانما الاصح ان اقول : هذه هى المرة التى فتحت فيها عينى على روسيا .. او على جزء من روسيا .. أو على بعض من روسيا .. فالذى رأيته قليل .. ولكنه مثير .. والذى لم اره كثير جدا ..

ولكن كما يحدث أن يختار الانسان بعض قطرات المحيط ليحللها فيعرف بعض خصائص المحيط ، فاننى فعلت ذلك .. اخترت القليل جدا وحاولت أن اعرف عن طريقه الكثير جدا ..

وفى كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » لم أستطع أن أكتب الكثير عن أمريكا ، لنفس السبب .. فالبلاد واسعة باهرة .. شديدة الحركة غالية التكاليف .. والانسان يشعر بالضآلة والفقر والذنب . ويحس لاول مرة انه اذا كان ابونا آدم قد أخطأ فنزل من الجنة الى الارض ، فأنا قد أخطأت لاننى نزلت الى أرض أمريكا .. وقد كانت عقوبة آدم أن يترك الجنة ويجىء الى الارض ، وكانت عقوبتى أن أجىء الى هذه الجنة المجنونة .. وأقوم فيها بدور « الحية » العريانة التى تزحف على بطنها بينما يركب الناس السيارات والطيارات التى تزحف على الارض أو على السحاب ..

ولذلك أمسكت قلمى عن الكتابة عن أمريكا .

ولم أستطع أن أمسك نفسى عن الكتابة عن روسيا التى استطاعت عمل الكثير لشعبها . وللشعوب الاخرى . وأقامت أعظم تجربة فى تاريخ الانسان فأذابت القوميات

واللغات والاديان والنظريات فى صيغة عمل واحد من اجل هدف واحد .. الاسلوب شاق والهدف بعيد .. والتعب كثير والعرق أكثر .. ومن الصعب ان يعرف أكثر الناس علما بوظائف الاعضـــاء الفرق بين العرق والدموع .. ولكن كل ذلك هان ويهون من اجل رفـــع الظلم والجوع والمرض والجهل عن مئـــات الملايين فى روسيا وفى غيرها ..

وفى نفس الوقت أحسست مرة اخرى كما يحس اى انسان يمشى على البلاج الى جوار البحر .. انه ينحنى بين حين وآخر ويلتقط حجرا .. ثم يرميه فى البحر .. او يرمى البحر بحجر .. وفى هـــذا الكتاب الكثير من الاحجار ـ انها عادة الذين يمشـــون على شـــواطىء البحار !

الذى
أكثر برودة
من
الجليد..



طبعا لن يذوب الجليد فى يوم وليلة وترتفع درجة الحرارة من تحت الصفر واحـدة أو اثنتين وثلاثا وعشرا لكى يصبح الجو مناسبا لزيارتى لموسكو .. لو كانوا يعرفون لفعلوا . ولذلك كان لابد من الملابس الثقيلة والحذاء الذى أدوس به على الجليد دون أن اشعر به . ذهبت الى دكان فى شارع قصر النيل . سألنى : الى أين ؟ قلت : الى موسكو .

ومع اهتزاز رأس البائع عرفت انه يعرف الحذاء المناسب للمكان المناسب ، ولابد ان هناك احذية خاصة بروســـيا واحذية خاصة بالبلاد الباردة الاخرى .

ووضعت رجلى فى الحذاء . وتفاهمنا على انه مناسب . ودفعت وخرجت لاسمعه يودعنى قائلا : مع السلامة ياكابتن !

اذن اكثر زبائنه من الرياضيين فهل انا رياضى . يبدو ذلك .

ودارت الفكرة فى راسى وبراسى : اننى ابدو رياضيا . ياريت . فأنا لا أمارس أية رياضة . ولكن اى نوع من الرياضيين ، فالفكرة ماتزال تلعب براسى . هل انا لاعب كرة ، ملاكم ، مصارع . هل أنا من حاملى الاثقال . اسئلة لم تعجبنى لان الاجابة لا تعجبنى أيضا . فأسقطتها من راسى ودست عليها بالحذاء الجديد ، دون أن أشعر بها .

ولم يبق امامى غير السفر الى موسكو .

وسألت العارفين بضرورة السفر : ولماذا أسافر قبل الكريسماس وراس السنة ؟

وجاءت الاجابة تؤكد تفـاهة السؤال : كيف تقول ذلك . انت لا تعرف ما الذى يعمله الروس فى الكريسماس وراس السنة . طبعا هذه اول مرة تسافر الى موسكو ؟

قلت : ليست اول مرة . فقـد رايت الكريسماس فى موسكو .. وكان عاديا ككل الاعياد ، وككل بلاد الله وكل خلق الله ..

ـ ولكن رأس السنة شيء آخر .. ثم جاءت غمزة بالعين وقرصة باليد ان المعنى جديد . وان الذى سـوف يكون فى راس السنة لم يخطر على بال .. وان راس السنة هو « رقص » السنة .. واذا أحببت فهو « رحس السنة » وكل سنوات العمر ..

ـ ولكن لماذا هذه السنة بالذات ؟

لقد كانت السنة الماضية : هى سنة لينين ـ مرور مائة عام على مولده .. كما كانت سـنة ١٩٦٧ ذكرى مرور خمسين عاما على الثورة السوفيتية أيضـا .. ولكن لابد ان هناك اسباب خاصة لا اعرفها ، سوف تجعل راس السنة مهرجانا عالميا . ولايبقى الا ان تذهب وترى وتذوق جمال الدنيـا ، وحلاوة الاعياد الاشتراكية الكبرى ..

اذن لا داعى لان تمضى الكريسماس فى موسكو .

وكان الجواب : لا داعى ..

وقلت : ولا داعى لان أكون هناك فى رأس السنة ..

وقيل : مستحيل .

وجاءنى مدير وكالة نوفوستى السـوفيتية للانباء وهو رجل رقيق مرح .. أو على الاقل ضاحك الوجه . وحدثته مشجع ويدعك لتتمنى : لو كان الروس كلهم كذلك .

وحاولت ان اعرف منه ان كانت هناك اية مناسبة كبرى للسفر في راس السنة . وكان جوابه : لابد أن لديهم اسبابا قوية لدعوتك في هذا الوقت .

اذن .. فهو لا يعرف مثلنا . ولكنه لا يستبعد ان تكون هناك أسباب خاصة .

ووجدت في داخلي رغبة قوية لمقاومة هذه الرحلة كلها . ولكن ليست عندي أسباب واضحة . واخيرا عرفت أنني أحاول أن أخرج على الخط الحديدي الذي سارت عليه نظرية غريبة : ففي سنة ١٩٣٠ امضيت راس السنة بين المنصورة وأسيوط .. وفي سنة ١٩٤٠ كنت في سيارة بين المنصورة والزقازيق .. وفي راس سنة ١٩٥٠ كنت في لندن وفي راس سنة ١٩٦٠ كنت في نيويورك .. ومطلوب ان اكون في راس سنة ١٩٧٠ في موسكو ..

وحاولت .. فلم أفلح ..

وبدأت الرحلة من البيت .. وقبل أن أنزل الى الشارع ارتديت ملابس مضاعفة . وجوارب مزدوجة . وحذاء مبطنا بالصوف . وبدلة ـ فأنا لا ألبس البدلة عادة الا مرغما ـ والبالطو والكوفية .. والطاقية المصنوعة من الفرو وبدأت أشعر بالبرد . مع أن هذه ليست الرحلة الاولى في حياتي الى الخارج . ربما كانت الاربعين . ولكنى انسى في كل مرة انني سافرت . وانني حزمت أمتعتي . وانني مرضت او اصابني البرد .. والحمد لله انني انسى . ولو تذكرت كل ما اصابني ما لبست ولا تحركت .. فحمدا لله على نعمة النسيان ..

وتأخرت الطائرة السوفيتية عن موعد قيامها ! عجيبة !!

قال بعض الناس : لابد أن شيئا خارقا للعادة قد حدث كأن يكون مطار موسكو قد غطاه الجليد .. أو أن موسكو كلها قد اختفت .

قال آخرون : ان الروس مجاملون الى ابعد حد .. لابد أن شركة ايروفلوت السوفيتية تجامل شركة الطيران العربية وهي لذلك تتأخر مثلها .

قال اناس اكثر واقعية : ان الروس « حنبليون » .. ينشدون الكمال فى كل شيء .. فلو احس الطيار ان فى طيـــارته خللا ، فلن يبرح ارض المطار .. وسوف نرون عندما تقف الطائرة على الممر .. سيجرب الطيار محركات الطـــائرة ويهزها ويثيرها كانه يريد ان يخرجها عن عقلها .. وبعد ذلك ينطلق ويرتفع بها ..

وعرفنا فيما بعد ان السبب خلل فى جهاز الراديو . وتم اصلاحه وجاء الامر من موسكو بضرورة السفر . وارتفعت الطائرة بستين روسيا وخمسة او ستة من المصريين . وجاء الصـــوت المألوف للمضيفة .. لابد انه يعلن ان الكابتن فلاديمير يرحب بنا على متن الطائرة الاليوشن ٦٢ وان الطائرة سوف ترتفع الى عشرين الف قدم وانها ستنطلق بسرعة ٨٥٠ كيلو مترا فى الســـاعة .. وان درجة الحرارة فى موسكو الآن هى عشر درجات ولكنها غدا ســـوف تكون ثمانى درجات تحت الصفر . وان المشروبات سوف تقدم لنا حالا ..

وجاءت المشروبات مياها معدنية وعصير فواكه ..

وتهامس بعض الناس : لا فودكا ..

وقالت المضيفة : لا

وقال غيرهم : لا كافيار .

وجاء رد المضيفة : لا ..

وأحسست اننا دخلنا الحدود الســـوفيتية بسرعة غريبة .. وكانت المضيفة متجهمة الوجه . هـــذا طبيعى . ولكن المسافرين السوفيت لم يتوقفوا عن الضحك .. وعن الحكايات والنكت .. بل ان بعضهم ذهب الى درجة التمثيل . وكانت النساء اكثرهم ضحكا وصراخا .. ونحن ــ طبعا ــ كالاطرش فى الزفة .. فلا اعرف ولا كلمة سوفيتية . وازداد سخطى على مدير المكتب الثقافى السوفيتى الذى وعدنى منذ ثلاث ســـنوات بمدرس خاص .. ولم يف بهذا الوعد !

ولو شاءت هـــذه المضيفة ان تضحك لعرضت عليها موضوعات

مضحكة . ولكن يبدو ان التكشيرة جزء من الملابس الرسمية ، أو من المسئولية . ولو نظرت المضيفة الى وجوه المسافرين لضحكت ولكنها لاتفعل ذلك .. بيننا من ارتدى طرطورا احمر . انه لم يرد أن يكون مضحكا . وانما لم يجد امامه شيئا يدفىء رأسه غير هذا الطرطور . ولو ضربت برجلها فى احدى الحقائب لتكسر عدد من البيض .. ولتناثر البرتقال .. ولو مدت يدها لتفك الكوفية من عنق أحد المسافرين لسقطت من الرعب . فقد علق فى عنقه حجابا من جلد الماعز !

حاول بعضنا ان يكون لطيفا مع المضيفة ، لعلها أن تكون كذلك فقال : الدنيا برد .. فأين الفودكا ؟ وكان ردها : بعد لحظات ستكون الطائرة دافئة !

ومعنى ذلك انه لا داعى للفودكا .. ولا شىء بعد ذلك غير الشعور بالاطمئنان الى قوة الطائرة وسلامة السفر . والى انه بعد ساعتين أو ثلاث سنكون فى موسكو .. وهذا هو الذى يهم . وفى مطار موسكو سوف ينتظرنى ـ طبعا ـ مندوب من اتحاد الكتاب . سيقول لى : حمد الله على السلامة . فأقول : الله يسلمك .

ـ وهل كانت الرحلة مريحة ..

ـ للغاية ..

ـ لم تشعر بأى تعب .

ـ ولا بأى ارتياح .

ـ كيف ...

استطاعت الطائرة أن تضعنى بالضبط فى منطقة انعدام الوزن ... فى حالة نشوى بلا خمر .. مثل جاجارين .

ـ اوه ... جاجارين .. اذن كانت رحلة مريحة ...

ـ جدا ..

ـ اذن اسمح لى باسم اتحاد الكتاب السوفيت ان اضع هذا الاكليل من الورد حول عنقك ...

ـ اشكرك .. واشكر الاتحاد .. ويؤسفنى اننى لم احضر معى وردا من مصر .. فالورد عندنا اكثر واجمل .

ـ اننا نعرف ذلك ..

ومن المؤكد انه سوف يقول : وتحب تتناول عشاءك اين ؟ الآن ؟ فى المطار ؟ أو فى الفندق .

فاقول : فى الفندق بعد أن اكون قد غيرت ..

ـ اعرف .. تفضل .. الخ ..

ووصلت الطائرة الى مطار موسكو ..

وخرجت من الباب الى السلم وفقدت الاحساس بكل ما ظهر من وجهى . البرودة شديدة جدا .. الظلام تام .. الهواء .. لا هواء .. انه حائط اصم من الجليد .. اصطدمت به والتصقت به شفتاى وجفناى . وتسللت من باب الى باب اكثر دفئا .. الى طابور .. ومن طابور الى طابور .. الى صالة الجمرك .. كل شىء يتم فيها فى هدوء وبنظام .. لا احد يتكلم . كل واحد قدم أوراقه وكل مسئول ـ أو مسئولة ـ يقلب فى الاوراق ويرفع رأسه ويتفرس الوجوه ويختم .

وانفتحت حقائب المواطنين السوفيت وامتدت الايدى تقلب فى كل شىء . فى كل الادوات والثمار .. فروسيا تنتج كل الادوات ولابد من حماية منتجاتها .. وحماية مزروعاتها أيضا وجاء دورى ورفعت حقائبى . ولكن موظف الجمرك امسك جواز السفر ونظر فى تصريح الدخول .. واشار بيده وقال بالانجليزية : لا .. لا !

واسترحت الى هذا الاستنكار . فليس من الضرورى أن اقدم حقائبى ولا ان افتحها . انها معاملة خاصة ولابد اننا نعامل ضيوفنا السوفيت كذلك .. شكرا .

ولاحظت ان رجل الجمرك ظريف أو حريص على أن يكون كذلك . فليس من السهل على النفس ان يقبل الانسان مثل هذا العمل

السخيف دون أن يؤكد للناس انه مرغم عليه .. تصور انك تقف أمام كل انسان وتطلب اليه أن يفتح حقائبه .. وأن تقلب فى ملابسه .. وأن تخرج المقص والسكين والعروسة .. والبرتقال والورد .. وان تساله لماذا اشترى ذلك .. ولابد ان يدفع جمركا على ذلك .. من الصعب ان تلخبط حقائب الناس ومشاعرهم وتكسفهم دون أن تنكسف انت ايضا ..

وقد رايت احتـرام السلطات لشخصى عنـدما رايت الخجل والحرج على وجه موظف الجمرك وأنا أقدم له حقائبى .

اما الآن وبعد ان تمت الاجراءات كلهـا ، فقد انفتح الباب .. وأصبحت خارج القيود الجمركية .. فى صالة طويلة عريضة .. باردة بعض الشيء .. وكل انسـان له وجهة محددة : البـاب الخارجى .. الاوتوبيس .. او التاكسى ثم الى البيت ..

والشوارع مظلمة باردة .. والثلج يتساقط فى كل مكان .. وأكثر برودة من الجو : انني لم اجد أحدا فى استقبالى . لا من اتحـاد الكتاب السوفيت .. ولا من السفارة . وبسرعة قلت لنفسى : ولماذا السفارة ؟ فعلا لماذا السفارة .. فلا شأن لها بى ولا بغيرى . فأنا لا اعرف احدا . ولو عرفت فأنا لم اخبره بسفرى . اذن أين مندوب اتحاد الكتاب ؟

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل .. اى فى الساعات الاولى من يوم ٣٠ ديسمبر .. وهو اليوم السابق على راس السنة .. ولابد انه اجازة . وهو بالفعل كذلك فى كل الدنيـا . وفى روسيا طبعا .. ما العمل ؟

هذا السؤال وجهه بعض الشبان الى الكاتب الكبير جوركى فكان جوابه : أن تعملوا !

الجواب مقنع . ولكن ان اعمل لابد أن يكون العمل معناه أن أظل امشى فى هذا المدخل الواسع ذهابا وايابا حتى الصباح .. وأن اجلس من حين الى آخر .. وأن انام على أحد المقاعد حتى الصباح .. او

ان اذهب الى واحدة : من عشرات المضيفات واسأل : انا مدعو من اتحاد الكتاب السوفيت : ولم اجد احدا فى انتظارى . فما رأيك ؟

وكان رأيها انه لا يمكن الاتصال باحد .. ولا بالسفارة وانه من الافضل ان ابيت فى فندق المطار . انتهى الكلام . وانشغلت هى باشياء أخرى . وهذا طبيعى .

هذا ما فهمته . ولا اعرف ان كان هذا هو الذى تقصده هى ايضا فالمسافة بيننا واسعة جدا ولا نقطعها الا على أكتاف عدد قليل من الكلمات الانجليزية من جانبى والروسية من جانبها .

وجاء الاوتوبيس وبدون كلام ، واقترب السائق وحمل الحقائب .. وبعد عشرين كيلو مترا ، وقف امام أحد الفنادق . واشار بالنزول . واختفى . وظهرت وجوه مشابهة . واقتربت وسألت : ما العمل ؟

وكان الرد عمليا : ان كانت معك فلوس ففى استطاعتك ان تبيت حتى الصباح .. عملات روسية ؟

ــ لا عملات روسية .

ــ اذن ... اذهب وغيرها فى فندق يبعد عنا كيلومترا .

ــ كيف ؟

ــ بالتاكسى ..

ــ وما الذى ادفعه للتاكسى ؟

ــ تصرف ؟

وبدا كل شىء غير معقول ولا منطقى . فلا توجد عملات روسية . ولا يمكن تغييرها ، الا اذا وجدت التاكسى ، ولو وجدته فلا أجد ما ادفعه له .. ولابد انأجد مكانا ابيت فيهحتى الصباح ..واصبح الموقف مضحكا . واما قوة الضحك الذى يهزنا جميعا ويجعلنا سخفاء .. اقترحت احدى المضيفات ان نبيت حتى الصباح .. وان تقرضنا بعض المال على ان ندفعه عندما نصحو .. اى بعد ان تكون قد غيرنا العملات الصعبة التى معنا الى روبلات .. أو بعد

ان نكون قد اتصلنا بأحد المصريين فى موسكو .. أو حتى باتحاد الكتاب ..

وقالت الفتاة : هذه الروبلات لكى تتناولوا بها طعام الافطار ــ وكنا ثلاثة !

وفى الصباح المبكر ارتديت ملابسى .. ولم اجد مكانا اشرب فيه كوبا من الشاى .. فالمطعم لن يفتح بابه الا فى الثامنة .. والساعة ماتزال السادسة .

وعدت الى الغرفة .. وقال واحد : كانت زوجتى عاقلة .. انها باحساسها الفطرى أدركت انني سأحتاج الى طعام .. حاولت أن اقنعها الا تجعلنى نكتة موسكو .. ولكنها أصرت .. وتلهفت على معرفة قرار الزوجة ، لقد أعطته اكثر من خمسين بيضة بمنتهى العقل . واعظم انتصار على الجوع وعلى مواعيد العمل فى مطاعم موسكو .

وجاء البيض .. كأنه حبات اللؤلؤ ..

وعاد البيض كأنه قطع من الحجارة .. لقد نسيت الزوجة أن تسلقه !



أشياء
كثيرة حمراء
إلاّ..
الشاى!



كان لابد أن نتصل بالسفارة
وأنا أعرف أن أبغض الحلال الى المواطنين هـــو الاتصال بأية سفارة والى رجال السفارة أن يتصل بهم أحد المواطنين أيضا . فهنـــاك عشرات القصص والنوادر والفواجع .

من عشرين سنة ســافرت الى فينا واضطررت الى أن أدق أبواب السفارة وكانت الساعة مبكرة ، فالجائع لاينام وكانت المشكلة أن أســتاذا جامعيا سرقت أمواله ، ورفض اية مساعدة منا ، حاولنــا ولكنه رفض ، ولم نفهم منه ما الذى يريده بالضبط من السفارة .. أو من « الجماعة دول » .. وجلسنا فى الســــفارة بعض الوقت ، وجاء أحد أعضاء السفارة ، وقدمنا أنفسنا ، وكان أسبقنا الاستاذ الجامعى وقال انه يريد أن يبيع البالطو او يرهنه أو يحصـــل على سلفة بضمان !

وكل التفاصيل بعد ذلك كانت محزنة لنا جميعا !!

وفى مرسيليا ذهبت مع احد ركاب الباخرة الفرنسية « الماريشال جوفر » الى القنصل .. وكان الراكب مصريا قد جاء من القــاهرة ومعه حقيبة ليس فيها الا قميص وماكينة حلاقة .. ويريد السفر الى باريس فقط .. وكان حزننا على بلدنا عميقا !

والمواطن ـ عادة ـ لا يسأل ان كان القنصل عاجزا عن مساعدته .. او ان كانت لديه أموال من الدولة لمساعدة المواطنين.. وما الذى يفعله القنصل اذا جاءه كل يوم مواطن نصاب يروى قصصا اغرب واعجب .. ولكن الذى حدث فى القنصلية مهين للانسانية نفسها !

اما فى لندن فهناك عشرات بل مئات من المرضى دخلوا المستشفيات ولم يدفعوا الحساب .. وعلى السفارة ان تدفع مئات الالوف من الجنيهات !

وفى طوكيو رايت مواطنا مصريا قد هاجر الى اليابان وكان اللقاء صدفة سألته : وما الذى تعمله هنا ؟ قال : كنت اعمل ولكن السفارة اوقفت حالى وبددت مالى ..

وسألته ، وعندى استعداد لان اقبل وجهة نظره ، فالناس فى الخارج يشعرون ان السفارة يجب أن تكون فى خدمتهم لان اعمال السفارات تبدا عندما يهبط أى مواطن الى دولة اجنبية .. هكذا يتصور الناس فقلت له : وماذا صنع بك « الناس دول » ؟..

وعندما ذهبت الى السفارة عرفت ان هذا الرجل قد نصب على عدد من الشركات اليابانية ، وعرفت أن التاجر اليابانى قد يبدو ساذجا طيبا ولكنه ليس كذلك ، وانما هذه السذاجة تبدو عادة فى ادبه ورقته وفى ان عينيه تبدوان سارحتين ، ولكن الحقيقة أن عينيه اتجهت احداهما الى الباب والاخرى الى يدى المشترى .. والادب لايدل على عبط وانما يدل على أن التاجر اليابانى بعد ان راى وجه الزبون قد تأمل بنطلونه وحذاءه واصابع يديه .. ومن العجب ان البوليس اليابانى قد اهتدى الى معرفة هذا النصاب المصرى عن طريق خاتم عليه تمثال لابى الهول من قطعتين ..

والمصرى الوحيد الذى قابلته فى استراليا روى لى قصة عن السفير المصرى الذى ضربه بالجزمة ، وتضايقت جدا . وقررت

ان . . ــ وقبل ان اكمل هذه العبارة وهذا القرار تنبهت الى انه لم تكن لنا سفارة فى استراليا !

كانت هذه الحوادث فى راسي وأنا ادير قرص التليفون اطلب السفارة وأطلب الوزير وفاء حجازى ، لا أعرفه ولكني سمعت ما شجعني على الاتصال به ، وجاءت عبارته دافئة ، وجاءت السيارة ومعها مبلغ اثنا عشر روبلا تكاليف الافطار والاقامة فى فندق المطار وهذا اقرار منى بذلك !

وبسرعة انتقلنا من المطار الى السفارة لنواجه اولَ سوء فهم يجب أن نزيله ، فاتحاد الكتاب السوفييت لم يتلق من القاهرة برقية تقول اننا فى طريقنا الى موسكو . وأننا أجلنا موعد سفرنا اسبوعا وجاء مندوب من الاتحاد وجاء مترجم ، واعتذر لنا الرجلان عن غلطة لم يرتكبها أحد وانما ارتكبتها القاهرة ، وليس المعقول ان تقوم موسكو بالتخمين .

وارتفعت الحرارة فى كل مكان ، وأصبحت للشوارع الوان غير اللون الابيض الذى كان كالحا موجعا للعين ، أصبح هذا البياض جميلا ، وأصبح الجليد ، كما يقول الشاعر بوشكين ، هو الضوء السحرى الذى يذكرنا بالشباب .. وظهرت البيوت .. والناس .. كل شيء قد دبت فيه الحياة ، ونحن أيضا ، وأصبح الطريق الى الفندق قصيرا ، ودخلت فى الفندق ، فى قلب الدنيا ، ففى داخل الفندق ناس من كل لون ودين وقارة ، وليس فى امكانك أن تعرف ماهى بالضبط معالم المواطن السوفيتى ؟ صعب . لان الاتحاد السوفيتى يضم خمس عشرة جمهورية ومئات القوميات واللغات . ومن الممكن ــ وقد حدث ــ ان يجيء اى انسان ويتحدث اليك بالروسية وتندهش ، ولكن لو فكرت قليلا تجد انه لا داعى للدهشة ففى روسيا اناس فى لونك ولون شعرك وطولك ولون بشرتك ويحملقون فى الداخلين والداخلات والداخلات أكثر ..

الفندق اسمه « روسيا » .. والروس ينطقون هـــذه الكلمة بحذف الواو .. وهو اجمل واكبـــر فنادق الاتحاد السوفيتى ، اكثر من اربعة آلاف غرفة ومائة مصعد .. وعشرات من المطاعم ، وكل شيء هنا كبير واسع ضخم .. الشوارع والعمارات وارقام السيارات ، واللون الاحمر غالب على كل شيء .. المبانى والملابس والاعلام واللافتات .. ومن النافذة أرى الكرملين .. وارى الكنائس الذهبية القباب .. واول مايخطر على بالك : ولمـــاذا الكنائس ؟ والجواب : والمساجد ايضا لقد ابقى الروس على كل شيء ، الماضى كله ، قصور القياصرة والكنائس والمساجد والمعـــابد كل كنوز القياصرة التى كان يحلم بها هتلر ومن قبله نابليون ايضا ، كل شيء على ماكان عليه ، واجمل ، والى جوار الماضى اقاموا المســـتقبل : لامعا رائعا . ان السفر الى روسيا هو سفر الى المستقبل ، الى مستقبل الانسانية كلها ..

وتسأل ولماذا كل هذه المبانى القديمة ؟

ويكون الجواب : لانها جزء من تاريخ الشعب ودمعه ودمه ،ولانه يجب ان يعرف كيف كان ثم كيف اصبح .. وكيف من الممكن ان يكون احسن ! ..

فالى جوار هـــذه التحف القديمة توجد تحف حديثة : توجد مسارح ومتاحف ومطارات ومصانع وجامعات اما مسارح موسكو ولننجراد فلا يمكن مقارنتها بأية مسارح فى اوروبا كلها أو فى أمريكا ولكن يمكن مقارنة مسارح المدن الاخرى بالمســـارح الاوروبيـــة ولا يغيب عن عينى ، وعن دمع عينى مسرح الاوبرا فى القاهرة الذى مانزال نقرأ عليه حرفى : خ.ت ـ اى الخديو توفيق ـ اى انه قديم جدا او مسرح الجمهورية ، بصراحة أيها السادة : انهـــا تصلح لاشياء اخرى بعز على أن اسميها ، فلا اضاءة ، ولا مقاعد ، ولا مداخل ، ولا مخارج ، ولا مطاعم ولا دورات مياه ولا مسارح ايضا. اننى أظلم مسرح مركز بخارى الصغير اذا قارنته بمسرح الاوبرا ..

ولا كيف هزتني قائدة الاوركسترا وهي سيدة عندما رايتها واحسست اقتدارها على التوجيه .

وهذه المسارح العجيبة تجعلك تحس ان هنالك خمسة اشياء في كل مدينة روسية تبدأ بحرف الميم - في لغتنا طبعا : مدرسة ومسرح ومتحف للنين ومصنع ومطار .. بل عشرات المدارس والمصانع واكثر من مسرح واكثر من متحف ، بل في بعض الاحيان جامعة ..»

ما نزال في فندق روسيا : زحام في كل مكان .. والمصاعد هي لعبة النزلاء والاجانب ، فالمصعد يتسع لاحد عشر شخصا ، ولكن في بعض الاحيان تكون الحمولة أكبر من ذلك ، فاكثرنا لايعرف اللغة الروسية المكتوبة على المصاعد ، وهنا ينطلق جرس ينبهنا الى ذلك ، وقد عرف الناس هذه اللعبة .. فيخرج اثنان لمدة ثانية واحدة ثم يعودان .. وهنا يرتفع المصعد - هناك ايضا من لايقدر خطورة هذه اللعبة . وهذا نوع من الذكاء الضار ويوجد مطعم عند طرفي كل طابق ، والفندق نفسه جزيرة مليئة بالناس من القارات الخمس ، نحن على مدى يوم واحد من راس السنة ، اننا في موسم الاجازات ، ولا نزال في داخل الفندق لم نخرج بعد ، وان كنا من النافذة نرى الناس كالنحل او كالنمل ، يروحون ويجيئون في حيوية وقوة ، صحة .. منتهى الصحة ، ولا يسقط أحد على الثلج ، كما فعلت اكثر من مرة ..

والفنادق الروسية كلها لاتعرف نظام تقديم الاكل في الغرف ، وانما عليك أن تذهب الى المطعم الكبير . أو الى احد المطعمين على جانبي الفندق واهم من ذلك ان تقف في الطابور ، فاذا ذهبت الى المطعم ، فمن الطبيعي أن يكون قد سبقك اليه آخرون .. ولابد ان يقفوا في طابور فتتمكن سيدة واحدة من خدمة الجميع ، وسيدة واحدة هي التي تعد لك الشاي او القهوة أو اللحم وهي التي تحاسبك أنت والذي يليك ، سوف تتضايق اول الامر ، انا فعلت

ذلك ، وستهرب من الطابور لانك لم تعتد ان تقف فى الطـــابور ، وستذهب الى مطعم آخر ستجد طابورا أقصر ، لابد ان تقف .. لابد من الطابور ، حتى لو احتج كل النزلاء على نظام الطابور فلابد أن يقفوا فى طابور مرة أخرى ! واذا قررت الا تقف فى اى طابور ، فانت حر ، هذه هى طريقة الشعب الروسى فى الحياة وقد استراح اليها قبل تشريفك ، ولا يذهب به الكرم الى درجة ان يلخبط نظام حياته من أجلك .. بعض الروس يقرأون فى الصحف أثناء الوقوف فى الطابور .. ولكن لن تجد احدا يشكو او يتململ لانه لا توجد اية طريقة أخرى للحصول على أى شىء ، لكى تعمل يجب ان تقف فى الطابور ! هذه هى القاعدة !

وفى فندق روسيا اكثر من صالون حلاقة .. صالون السيدات عليه زحام شديد السيدات يجلسن متجاورات ، السيدات خارج الصالون وداخل الصالون يصبغن شعرهن بالحنـــاء ـ موضـــة سخيفة ! والاسطوات من السيدات ، وعملية تصفيف الشـــعر وتجفيفه لاتستغرق وقتا طويلا ومن الممكن ان يطـــول الوقت اذا دفعت بقشيشا . ان احدا لا يطلب البقشيش ولكنه لا يرفضه اذا اعطيته ، وليست الاسطوات فقط من السيدات ولكن المهن الطبيه والتدريس وكنس الشوارع .. وفى شوارع موسكو ، ومعظم المدن نجد النساء هن اللاتى ينقلن الجليد والرمال ويجعلنه على شــــكل اكوام حتى نجىء سيارات لاتهدأ ليلا ولا نهارا لحمل اثار الجليد . ممكن جدا أن تجد فتاة كالقمر .. ولها شعر جميل وعينان رائعتان

ولا تكاد تنسحب بعينيك الى اسفل حتى تصطدم بالجـاروف الذى فى يديها وتقف وتتفرج عليها وتقول كلاما معناه : ياخبر لو جاءت هذه الفتاة الى مطار القاهرة لسقط عندقدميها كل المحرجين .. والفتاة تسمعك ولا تعرف ما الذى أدهشك . فهى لاتقوم بعمل يستنكره أحد ، ولكن الذى فى رأسك وقلبك شىء آخر .. والمرأة هنا هى نصف المجتمع .. او وسط المجتمع الذى انكسر من التعب ،

ايها السادة : ان المراة هنا تساوى الرجل فى حمل اعباء الحياة وتبقى الاعمال الشاقة للرجل فى المصانع والقتال والاعمال الفنية جـــدا ! ...

وقد تغامز كل الروس ونحن فى الطائرة ت.ى. ١١١ فى طريقنا من طشقند الى موســكو ، فقد جاءت ثلاث ســيدات ورحن يحصين عدد الركاب واخطأن اربع مرات .. وقال رجل مبسـوط شوية : ان الذين اخترعوا الطائرة من الرجال .. ولكن احـدا لم يضحك لهذه النكتة .. فهذه التفرقة بين الرجال والنساء ليست موضوعا للمناقشة .. ولا تفوق الرجال عن النساء حقيقة مطلقة .. وكدت اقول لهذا الرجل : أنت أيضا شرقى ولكن لم اســتطع ، فليس عنده استعداد لان يخرج عن شعوره بأنه سخيف وأن الناس قد ادركوا فى صمت انه مخمور ! ولابد أن يكون حديثى معه نوعا من المواساة له ، وهو يرفض هذه التعزية من جانبى ! ..

مازلنا فى فندق روسيا ..

لا توجد فى الفنــدق مكتبة لبيع الكتب ، أما الصحف الاجنبية فهى ليست « طازة » والصور التذكارية مطبوعة بالوان رديئــة وعلى ورق اكثر رداءة ، وبائعة الصحف تبيع طوابع البريد وعندها زجاجة صمغ ايضا ، انها طريقة عملية لتغطيــة أى نقص فى جمع طوابع البريد نفسها . وفى موسكو صحيفة عربية اسمها « اخبار موســكو » ماتزال تتحدث عن زيارة الوفــد المصرى وعن السد العالى وعن سفينة القمر ..

ولو حاولت أن تحددمعالم الرجل او المرأة الروسية فانك ستجد صعوبة ، فأنت لا تعرف اى هؤلاء جميعا هو الروسى : هل الابيض الاشــقر ازرق العينين .. متوسط الطول والسمنة . ربمــا ، ربما ، ولكنهذه الصفات يشترك فيها كثيرون من ابناء اوروبا ايضا، اذن لاداعى لتحديد صفاته الجسمية . العقلية اهم !

ولكن الشيء الذى يوجع العيون هو : عيون الروس .. واسعة لامعة جميلة .. واسعة وقوية عند الرجال وفاتنة عند النساء ، النظرة ثابتة والعين قادرة على مواجهة الريح وبيـاض الجليد ، ولا تملك أنت وكل الذين يلبسون النظارات ويعيشون يتزحلقون على مثل هذه الحروف الصغيرة فى ساعات الليل الصغيرة الا ان تقول وانت حزين على عينيك : يا خسارة هـذه العيون الحلوة علشـان كنس الشوارع .. انه عـدل من نوع آخر ، أو ظلم من نوع آخر !

وفى داخل الفندق تجد اناسا يحملون الفاكهة والزجاجـات والخبز . ما الحـكاية ؟ انهم اناس قرروا أن يأكلوا فى غرفهـم ، والسبب طبعا ان المطاعم الصغيرة فى الفندق تقفل أبوابها عنـد العاشرة والنصف ، وكثيرا ماتحايلنا على العاملات فى المطاعم ولكن الحيل لم تنفع عادة فنذهب بعد خروجنا من الاوبرا الى المطـاعم الصغيرة ، ونقول للعـاملة : شاى .. وترد عليك وهى شـديدة الارهاق : قهوة فقط . وتقول لها : بيض . وترد عليك : تفـاح فقط .. وتقول لها : أبوس رجلك !..

وتعطيك يدها فقط !

ومن الممكن بعد ذلك أن تنفلق الى نصفين ، احدهمـا يضحك على الآخر !

ويحدث كثيرا من يقول لك : حضرتك من مصر ؟

وتقول له : وحضرتك ؟

ــ من اليمن الشعبية .

ــ اهلا وسهلا .. طالب ؟

ــ ادرس الطب العسكرى ..

ــ وهذه مرافقة لك ..

ـ لا .. صـــديقة .

ـ آه .. اذن انت تجاوزت مشكلة اللغة ؟

ـ الفضل لها !..

اذكر انني قابلت ابن الممثل الكوميدى كامل انور .. وهو طالب مجتهد جـــدا . متدين . لايشرب . ويصلى . ومصر على ذلك ..

قال لي : انه وجد نفسه أمام معادلة صـــعبة .. فلكى يتعلم اللغة الروسية عليه ان يختار بين الكتاب وبين فتاة روســـية .. فاختار الاصعب : الكتاب !

وتفوق على الذين لايعرفون الا المحاملات او المعاكســـات .. والا الاشياء الصغيرة .. أى كل مايدور بين رجل وامرأة !

وشبان آخرون من كل البلاد العربية .. ومن الاراضى المحتلة .. هذا يدرس . هذا صدر ضده حكم . هذا صحفى . هذا مدرس .. وذاك فى طريقه الى بلاد أخرى .. وشاعر من الهند .. وآخر من باكستان . وتسأل الناس : الواحد يشوف ماذا هنا ؟

ويكون الرد : كل ماتريد ..

ـ مثلا .

ـ انت ماذا تريد أن ترى ؟

ـ اشوف البولشوى .

ـ ممكن .. قل للمرافقة تحجز لك ..

ـ اشوف الكرملين .. أشوف قبر لينين ..

ـ اتفق معها وهى تدبر ذلك .. لكم هنا معاملة خاصة !

وفى استطاعة المرافقة ان تدوس القانون لانك ضيف . ففى بعض الاحيان تقول : اننا وفد . وفى هذه الحالة فى استطاعتك ان تتقدم

الصفوف . وهناك أيام خاصة للاجانب فى زيارات لبعض الاماكن الاثرية .

كنا نقف امام سلم طائرة ضخمة . الدنيــــا برد جدا . تحت الصفر بثمانى درجات . أنت لا يمكن أن تعـــرف معنى الصفر الا اذا وضعت راسك فى ثلاجة .. أو تمددت على مجموعة من الواح الثلج عاريا .. والطابور طويل . ويزداد طولا والطائرات حولنـــا تصرخ وتنفخ والهواء يهرب منها ويصــفعنا ويلسعنا .. والروس حولنا .. ولاحاجة . لاشكوى . لاضيق . لابرد .. وانا ارفـــم قدما واضع قدما واتلمس احشائى ، الى اليسار : المصران الغليظ .. الى اليمين .. لا اعرف ما الذى الى اليمين ســــوف ابحث فى دائرة المعـــارف عن هذا الذى يتقلب فى الجانب الايمن ويتــكور فى الظهر .. والروس حولنا كأنهم قطع غيار لهـــذه الطـــائرات . واتجهت الى المرافقة . فى عرضك .. سأموت من البرد .

وصعدت الى الطائرة . وعرفت فيما بعد انها قالت للكابتن : انه أجنبى .. وعضو فى وفد رسمى ويكاد يسقط من الجليد فوق الجليد ويبدو أن بعض الروس لم يعجبه هذا الاستثناء .. فسرت همهمة . ولكن حدث صمت عندما عرفوا اننى ضيف على بلادهم .

وفى الليل خرجت وفى يدى براد شاى .. ابحث عن المطعم لاحصل على ماء ساخن . اما الشاى فكان عندى والسكر ايضا . ومنظرك وانت تحمل البراد والاكواب لا يصدم أحدا ، ولا يضيق به احد .. لانه ما الذى يمكن أن يفعله أى انسان اذا صحا من نومه قبل أن تفتح المطعم فى الثامنة صباحا ـ فأنا من الطيور المبكرة ، أصحو فى الخامسة ولا أجد مكانا أذهب اليه .. لا مكان . كل شىء مغلق فى الثامنة .. واذا أردت أن تتحقق بنفسك فأخرج من الفندق . واذا استطعت فأمش على قدميك . واذا كانت لك سيارة فاركبها ولكن الى اين .. لابد أن تعود الى الفندق وتبقى فى غرفتك حتى الثامنة .. ومن حقك طبعا أن تقلق عباد الله النائمين من المصريين وتتصـــــل بهم تليفونيا

وتسألهم عن اخبار مصر .. وهو عذر وجيه . ولكن ما الذى يمكن ان تقوله فى ثلاث ساعات لاناس كلهم كانوا نياما ، ثم نسيت أن تعتذر لهم !

اما ما الذى ياكله الروس فى الصباح : الى جانب الشاى الاخضر الذى لا يعجبك فانهم ياكلون اللحوم : السمك أو الكبدة أو الدجاج والخبز والزبدة .. وهناك شيء لذيذ جدا هو اللبن الزبادى .. انهم يشربونه كثيرا .

اما الشاى الاخضر فقد كان احدى مشكلاتى .. فلم افلح فى خلال اقامتى فى روسيا أن أعلم الاتحاد السوفيتى كيف يصنع الشاى لا انا فلحت ، ولا هم عندهم اى استعداد !!

واشتريت علبة الشاى ، وفى كل مرة يقدمون لى الشاى أضع القليل من العلبة .. وكان هذا هو أحد الحلول الاخيرة التى اهتديت اليها .. ولكن فى كل مكان يدور هذا الحوار الذى لا معنى له لانه بلا نتيجة عادة ..

ـ اريد شايا ثقيلا

ـ الشاى

ـ ويكون الشاى اخضر ..

ـ اريده ثقيلا !

ـ لا افهم !

وتجيء المرافقة وتشرح معنى الشاى الثقيل ، ويكون الرد عادة : هذا هو الشاى !

يعنى لا يوجد عندنا غير هذا .. لاننا نشربه هكذا !

فى القطار السريع الناعم الدافىء الى ليننجراد ، كانت الساعة السابعة ذهبت الى الكمسارية وهى سيدة جميلة : اريد الشاى من فضلك ..

ـ دقيقة واحدة ..

وبعد دقيقة كان الشاى ساخنا اخضر ، وقلت : الا يمكن ان يكون اثقل ..

ـ لا افهم ..

هنا فقط لا اعرف ما الذى اضيفه ذهبت الى المرافقة : ارجوك فهميها حكاية الشاى الاسود ؟

حاولت الكمسارية ان تجعل الشاى اقرب الى الاحمرار .. ولكن الشاى جاء مكسوفا أصفر اللون !

اما فى مطعم فندق لننجراد ، فقد قالت احدى المضيفات وباللغة الانجليزية : اسمع .. اذهب وتكلم مع السيدة المسئولة عن الشاى وكانت فرصة لارى السيدة مديرة شئون الشاى ، وقالت لى : ان الشاى هنا مضغوط فى أوزان خاصة وانت تأخذ نصيبك ، فاذا اردت مزيدا فادفع الثمن مضاعفا .

ـ لا مانع طبعا ..

وجاء الشاى ثقيلا جدا ، لم استطع ان اشربه ، وطلبت ان يكون اخف وقالت لى المضيفة : اذهب الى المديرة ..

وكانت فرصة لارى السيدة المديرة وكيف تدير ، ودخلت مكتبها ووجدت امامها عددا من الموظفــات والاطباق والشوك والسكاكين والفواتير ، فقلت لها : صباح الخير .. وخرجت ولكنها لم تشأ أن ترد .

وكان فى نيتى أن اسألها : لماذا تحبون اللون الاحمر فى كل شىء .. الا فى الشاى ..

.. وما نزال فى فندق روسيا .. اياما اخرى مع الشاى الاخضر !

الصديق الروسى ذلك .. المجهول !



صورة الرجل الروسى : ضخم الجثـــة . جاد
صارم . دائم التكشـــير . لايفهم النكتة . لايعرف
الحب . آلة تدير ما لانهاية له من الآلات . كل شىء
فى فمه : جماهير .. شعب .. عمال .. فلاحـون
حرب .. وحرب .. ثم حرب !

هذه الصورة ظالمه . ونحن فى حاجـة الى وقت
لكى نضع الصورة الحقيقية لهـذا الشعب العظيم
الصديق .

اما ان الروسى ضخم الجثة فهو اقرب الى الامريكى ويحب الاكل
والشرب مثله تماما !

واما انه جاد . فهو فعلا جاد . ياخذ الحياة بفهم وعلم ونظام . ولا
يمكن ان تتطور شعب الا اذا سار على قواعد من العلم . وارتفع على
ســــلالم من التجربة . نحو مستقبل من العـدل والامان للاغلبية
الساحقة . وروسيا كانت خرابا بعد الحرب العالمية الثانية . عرف
اهله الجوع . ولم يعرفوا الهوان . عرفوا العراء المميت ، ولم تمت
ارادتهم ، واصرارهم على النصر .

اما ان الروس دائمو التكشير ، فنحن ايضـــا دائمو الحزن .
انظر الى اى واحد منا وقد جلس وحده . انظر الى اية مصرية وقد

جلست بمفردها او وقفت وحدها ، ستجدها فى غاية الحزن والاسى ونقول فى تفسير ذلك : انه التاريخ الذى كان ثقيلا على وجداننا منذ اقدم العصور . فالحزن تاريخى ونحن نحمل بكاء اجدادنا فى عيوننا ولا يزال هـذا الحزن حيا فى اغانينا وفى حفاوتنا بالموت والموتى .. والبكاء على الماضى . والذى يقول بعد ذلك : اننـا شعب حزين يظلمنا . فنحن نتذوق النكتة ونصنعها . ونصـدرها . وكذلك الروس يضحكون بصورة مدوية . صورة تدهشك .. ففى الطائرة العائدة من موسكو كان بهـا وفد سياحى من اوكرانيا لم نتوقف رجاله ونساؤه عن الضحك .. والنساء يضحكن اكثـر وبصورة صارخة !

وفى روسيا ينسبون النكت الى اذاعة وهمية اسمها : راديو ارمنيا فيقول الواحد منهم : سمعت آخر نكتة .. لقد اذاعها راديو ارمنيا .. وراديو ارمنيا هو الاسم الجديد لجحا السوفيتى ..

وهذه النكت تقال على المسرح الرسمى فى موسكو .

ومن النكت : ان نجارا راح يدق المسامير فى لوح خشبى .. ولم يكد يصل الى نهاية اللوح حتى جاء نجار آخر يخلع نفس المسامير - ووقف الرجلان يتساءلان ..

قال الاول : لماذا خلعت هذه المسامير ؟

قال الثانى : عندى امر من اللجنة الثقافية بخلعها !

ثم اخرج ورقة من جيبه .

وقال الاول : وانا عندى امر من اللجنة الثقافية بدقها !

واخرج ورقة اخرى !

نكتة ثانية : يقال ان اللجنة الثقافية قررت تنشيط السياحة . فامرت مدير احد الكباريهات ان يقـدم الرقص العريان ما دام هو

الذى يعجب الشباب والسياح وفى ليلة الافتتاح ملأ النـــاس كل المقاعد . وفى الليلة الثانية اختفى نصف الناس وفى الليلة الثالثة لم يذهب احد . واستدعت اللجنة الثقافية مدير الكباريه ، وسألته ». فاجاب : انه اتى باقدم سيدتين من اعضاء الحزب وطلب اليهما ان ترقصا فى الكباريه !

نكتة ثالثة : لاحظ احد الجنود ان طفلا صغيرا يبكى كل ليلة عند النصب التذكارى للجندى المجهول . وسأله الجندى : لماذا تبكى ؟ فقال الطفل : على ابى ! وسأله : ومن قال لك انه مدفون هنـــا ؟ واجاب الطفل : امى .. لقد قالت لى ان ابى جندى مجهول !

نكتة رابعة : واحد يهودى فلاح ــ انتهت النكتة !

لان اليهود لا يعملون فى فلاحة الارض !

وعندما طلبت من السائق ان يذهب بنا الى اى « كواخور » ــ اى احدى المزارع الجماعية ــ ضحك وقال : حدث ان ركب ستالين سيارته فى احد شوارع موسكو فاعترضه احد الخيول ». ولم يفلح ستالين فى زحزحة هذا الحصان ، واخيرا نزل ستالين من سيارته واقترب من الحصان وهمس فى اذنه قائلا : اذا لم تفسح لى الطريق فسوف ابعث بك الى الكواخور !

فهرب الحصان ــ لان الحياة شاقة فى هذه المزارع الجماعية !

وعشرات .. ومئات من النكت الاجتمـاعية والسياسية يطلقها الروس على انفسهم .. من المؤكد انهم قادرون على الضحك والمرح والرقص والحديث .. وهم اولاد حظ .. ولكن المشكلة اننا لانعرفهم عن قرب ولا نعرف لغتهم وهى هذا الحاجز الهائل بيننا وبينهم ..» وهم من المؤكد اناس ككل الناس ». ولكننا ضحايا هذا الوهم : ان الغريب عنا ، غريب الاطوار ايضا . شـــاذ ». ولكن الروس اناس عمليون علميون .. وعلى طريقتهم الخاصة . والسباق فى الفضاء

هو اوضح دليل على ذلك : فالروس والامريكان لديهم نفس المبادىء العلمية فى الوصول الى الكواكب التى حولنا .. وابعد من الكواكب ولكن كل شعب له طريقته الخاصة . وليس من الضرورى ان يكون العالم الروسى كالعالم الامريكى . فاذا اختلف الروسى عن الامريكى فليس من المعقول ان يكون الخلاف لصالح الامريكى دائما أو الاوربى او العربى .. ان الروس مختلفون . ولكنهم متحضرون . ومتقدمون وجادون فى تحقيق كل ما هو ضرورى للانسان .

والروس لم يخترعوا كلمات : الشعب .. والجماهير .. والعمال .. والفلاحين .. والمثقفين والكادحين . وانما هذه الكلمات موجودة فى الكتب وعلى السنة الناس وفى صرخاتهم . ولكن الروس كشفوا عنها الغطاء . جعلوها موتورات قوية دافعة تجتاز الحواجز . وتدك القلاع .. وتغرس البذور ، وتجنى الثمار وتبنى المصانع ، وتكتب التاريخ !

وكراهية الروس للحـــرب لا يمكن ان توصف . ولايزال الادب السوفيتى المعاصر يختار مادته وألوانه وموسيقاه من الحرب . انهم لم يملوا الكلام عن الدمار والخراب . ولذلك فلن يحاربوا . لانهم يعرفون معنى الحرب .. معناها أن يموت منهم ٢٠ مليونا آخرون .. وان تنهار المصانع والمتاحف والعمارات .. وان يعيش الروس من جديد فى الخرائب .. ولكن الحرب هـذه المرة ستكون فناء للعالم كله . لانها بين اكبر قوتين عرفهما الانسان : روسيا وامريكا .. اما الشعوب الاخرى فهى وقود للنيران !

سألت الادباء السوفيت : الم تزهقوا من الكلام عن الحرب .. وقصص الحرب .. وافلام الحرب .

وكان ردهم : يجب ان تصبح كراهية الحرب حقيقة عميقة مروعة حتى يعمل الناس من اجل السلام ..

ما ازال فى فندق « روسيا » فنحن فى اجازة راس السنة .. ولا يوجد مكان نذهب اليه . ولكن هذا المكان الذى انا فيه يجىء اليه الناس من اركان العالم .. فانا لا اذهب الى العالم ، ولكنه يجىء الى !

وكلما نظرت الى الروس لاحظت ملامحهم المكشرة ، وجدت ان هذا طبيعي . فالجو يجعلك تنطوى بعضك على بعض تشد ملابسك عليك . وتزم شفتيك . وتعقد ما بين العينين والشفتين . كانك تريد أن تعرض اقل مساحة ممكنة من جسمك الى البرودة فى روسيا اكذوبة اخرى . ففى الشارع نجد الناس يعملون . والنساء يعملن والسائق يجلس فى سيارته والسيارة دافئة كالفرن . وهو يقرا فى كتاب والكتب ارخص شىء فى روسيا وهى فى متناول كل الناس . وفى معظم الاحيان معروضة مجانا لاى احد .. مئات الكتب . وفى احدى المرات قلت للسائق : الدنيا برد .. والحياة مستحيلة ! وكان رد الفعل عنده كموقفك انت عندما تسمع مثل هذه العبارة التى تقول :

٢+٢=٤ .. والحساب صعب !

فالبرد حقيقة مؤلمة .. ولكن الحياة ممكنة والسيطرة على الطبيعة لعل يمكن تحقيقه !

وفى الفندق نجد اناسا يضعون نياشين على صدورهم ونجوما . ولابد ان تسأل . وكان الجواب : ان هؤلاء عمال متفوقون .

لايهم نوع العمل الذى يؤدونه ولكن العمل حياة . ضرورة . مقدس وقد يكون هذا العامل المتفوق فى اللحام . او فى الطلاء . او هو بطل رياضى .. لقد رايت صورة لسيدة من سيدات اوزبكستان قد حصلت على نيشان لانها كانت ابرع سيدة فى حلب اللبن ، فقد قدمت اكبر كمية من اية امراة اخرى .. لا يهم ما الذى يفعله . ولكن كل شىء يفعله هو شىء هام ، له وللشعب كله .

وروسيا واسعة جدا .. طولها خمسة آلاف كيلو متر وعرضها ثلاثة آلاف . وهي في حاجة الى من يملأ هذا الفراغ الهائل .. ولذلك تشجع على زيادة النسل . وتمنح النياشين لاكثر الامهات اطفالا !

والملابس التي يرتديها الروس كثيرة وكثيفة .. كوم من الملابس البالطو . وتحت البالطو الجاكتة والبلوفر .. والقميص والفانيلا والكالسون والجورب والحذاء المبطن بالصوف .. وفوق الراس الطاقية من الفرو ويسمونها الشبكة .. وهذه « الشبكة »هي التي تجعل الروسي يمشي يدك الارض بخطوة واسعة . وهو في نفس الوقت حريص على الا يتزحلق . ومن النادر ان يحدث له ذلك . فالانزلاق رياضة . ولا شك انني ادخلت السرور على كثير من الاطفال عندما كنت أهتز ثم اقع على الارض كأي لوح خشبي .. بينما يتزحلق الاطفال الصغار كأنهم فرسان البحر !

وفي روسيا يسمحون لك ان تدخل مسرح البولشوي من غير كارفته .. ممكن . وهذا ما اسعدني بصفة خاصة ، لانني أضيق بالكرافته والبدلة . ولا أرتديها الا مرة او مرتين في العام .. ولكن يستحيل ان تدخل اي مكان بالبالطو .. اذا فعلت امتدت الايدي اليك .. وقد يدهشك هذا . ولكن معهم حق فالذي يدخل بالبالطو المبلل بالجليد .. سوف يضع البالطو على مقعد .. وسوف يتساقط الجليد ويتحول الى ماء بعد لحظات .. ومعنى ذلك ان الواحد سوف يحتل مقعدين بدلا من مقعد واحد .. واذا تكدست البلاطي والطواقي في اي مكان عطلت الناس . وعوقت حركتهم . ولذلك يجب ان يوضع البالطو في المكان المخصص له .. كنت أزور متحف بوشكين في موسكو ودخلت المطعم بالبالطو .. مع أنه بالطو خفيف .. وكانت الشبكة في يدي .. واندفعت السيدة كالصاروخ وبصوت لفت كل العيون المستنكرة لموقفي . وخرجت اتخبط في الناس ولم اعد .. وعرفت الخطيئة التي اقترفتها بحسن نية !

والمرأة الروسية تذهب الى المسرح ومعها شنطة بها حذاء عادي

ولا تكاد تدخل حتى تخلع حذاء الجليد الضـــخم وترتدى الحذاء الانيق .. انها تريد ان تكون انثى .. انيقة .. واخف حركة .. حتى لو لم ير الحذاء احد .. ولكنها تلفت اليه العيون بعد الفصل الاول عندما يصعد الناس الى الطابق العلوى يتناولون الساندوتشات والعصير !

والروس يشربون الفودكا باسراف ..

ولا تكاد نتذكر الرجل الروسى حتى يتبادر الى اذهاننا انه يشرب كميات كبيرة من الفودكا . وهـــذا صحيح . ولكن الفودكا ضرورة ـ اذا لم يشربها مات من البرد ـ فالروسى اجتماعى جدا . يحب أن ياكل ويشرب ويتحدث ويضحك . ولكن الفودكا لها مراسم غريبة .. فلابد من التحيات والسلامات فيقف الواحد منهم جادا ويقول مثلا : فى صحة الصداقة العربية السوفيتية التى قامت على محبة السلام ومكافحة الاستعمار والرجعية ومن أجل مزيد من الصداقة والتفاهم المشترك القائم على الاحترام المتبادل بين الشعب المصرى والشعوب السوفيتية ـ ومايزال الرجل واقفا وفى يده كأس الفودكا ـ وفى صحة زميلنا ورفيقنا فلان الفلانى الذى نتمنى له ان يتمكن من أن يجلو حقيقة هذه الصداقة بين شعبينا العظيمين .. (ثم يرفع الكأس الى فمه والجميع يفعلون ذلك فى ثانية واحدة) .

ويجلس . ويقف غيره يقول كلاما مشابها أو مخالفا . ولكن كل هذه الانخاب تجىء الواحـــد بعد الاخرى . ويجب أن تنهض انت ايضا . وترفع كأسك .. وتقول كلاما جادا . وربما يكون هذا الكلام الجاد الوحيد فى جلسة تستغرق ثلاث ساعات وثلاثمائة كأس .. ويحدث كثيرا أن يتوقف انسان عن النكت والفرفشة ليقول : فى صحة العمال والمهندسين والشعب الذى اقام فى صلابة وبصلابة : السد العالى رمزا للصداقة بين الاتحاد السوفيتى ومصر ..

ولكنها هى التقاليد ..

وقد استطاع الروس أن يصنعوا الفودكا كيميائيا .. واستطاع الروس أن يصنعوا الكافيار ـ وهو بطارخ الاسماك ـ من المركبات البترولية ويستحيل على أى انسان أن يفرق بين الكافيار الصناعى والكافيار الطبيعى ..

ومن العجيب أن الروس « لا يشربون » الفودكا . وانما هم يبلعونها .

وقد زارنى فى أوائل هـذا العام اثنان من الادباء السوفيت وقلت لهما مداعبا : أنتم لا تشربون .. أنتم تبلعون الفودكا .. كأنكم تخافون أن تترك أى اثر على اللسان ..

ولم تعجبهما هذه الملحوظة . أو لم يفهماها بوضوح . أو فهماها ولم يتصوروا ان هذا شىء جديد .. ثم قلت : لقد لاحظت ان الكثيرين يشربون الفودكا .. ووراءها بسرعة يشربون المياه المعدنية .. او عصير الفاكهة ..

وذكرت لهما اننى عندما رافقت الشـاعر يفتشنكو الى اسوان كان يحرص على ان يشرب وراء كل كاس فودكا كأسـا من عصير الطماطم . وكان يقول ان الطماطم تزيل مفعول الفودكا ..

واذكر ايضا اننى عندما دعانى الممثل الكبير ركس هاريسون الى بيته فى لندن لاحظت انه يضع الفودكا وعصير الطماطم والمستردة والليمون فى كاس واحـده . ولكن الروس يفضلونها فرادى .. لا معـا !

ولذلك فكثير من الروس لا يستسيغون الويسكى مثـلا : لانه يحتاج منهم الى ان يشربوه .. قليلا قليلا .. وقد اعتادوا ان يبتلعوه دفعة واحدة !

فالفودكا هى نوع من الحرارة السائلة .. وهى تدفئة ضرورية فى بلاد شديدة البرودة .. ولابد من الدفء والا توقف العمل . ولايها

من الحركة والا تحجر الناس .. ثم ان الروس ليسوا وحدهم الذين يشربون فى البلاد الباردة فكما ان النار ضرورة فالنار السائلة ضرورة أيضا !

ومازالت الوجوه الروسية التى تدخل من باب الفندق شديدة الاحمرار .. وشديدة التكشير ايضا . ولكن لكي تفهم هذه الملامح عليك ان تقف امام مروحة يهب هواؤها على وجهك .. ثم انظر بسرعة الى وجهك فى المرآة . انك مكشر لماذا ؟ انت الآن عرفت السبب !

◎❖◎

مانزال فى فندق روسيا فى قلب موسكو ..

والروس ينطقون عاصمة بلادهم « موسكفا » وبحذف الواو أيضا .. ونحن نقول : الفضة المسكوفى .. اى الفضة الواردة من موسكو .. وهى عاصمة الاتحاد السوفيتى وعاصمة جمهورية روسيا . وفيها مجلس السوفيت الاعلى ومجلس الوزراء . ومساحتها ربع مليون فدان .. وعدد سكانها ستة ملايين . وهى قد اقيمت على تلال مثل روما . وهى تقع على الخط الذى يمر بمدينة دمشق . ومن الطابق الواحد والعشرين للفندق ترى عمارات كثيرة جدا .. عالية .. ناطحة سحاب .. ان موسكو تتسع وترتفع أيضا . وبها عمارات للايجار . وشقق للتمليك . وكثير من احيائها القديمة قد ابيدت وظهرت مكانها عمارات سكنية .. ولاتزال أعمال البناء فى كل مكان . ومن المؤكد ان موسكو هى انظف عاصمة اوربية .

وموسكو رغم انها العاصمة السياسية والادارية فهى ايضا مركز لاهم الصناعات الروسية من الدبوس الى الصاروخ .

ثم هذه الارقام : بها نصف مليون طالب . وبها ٥٥٠ معهدا للابحاث . وفى موسكو قصر اسمه « قصر الرواد » للطلبة الموهوبين مساحته ٢٦٠ فدانا . وبه مسرح يتسع لسبعة آلاف متفرج . وفى

جامعة موسكو وحدها ٢٥ الف طالب فى ١٤ كلية وفى هذه الجامعة ٤٥ الف غرفة . واذا قرر انسان ان يمر فى هـــذه الغرف واحدة واحـــدة ، لاى سبب جنونى ، فسوف يقطع ١٥٠ كيلو مترا على قدميه ..

ومن النافذة نرى مقر الكرملين .. او قصور الكرملين . . الكرملين معناه القلعة . وقد بنـــاه امير من اصـــل انجليزى . والكنائس الموجودة بناها مهندسون ايطاليون . واحدى الكنائس بناها مهندس ايطالى . وحتى لا يكرر هـــذه التحفة الفنية جاء الامبراطور ايفان الرهيب وفقأ عينيه .

والميدان الاحمر يحتشد فيه الشعب . فى المناسبات الكبرى فى الاعياد القومية . . عيد الثورة وعيـــد العمال .. واستقبال رواد الفضاء .. وهذا الميدان سمى الميدان الاحمر لسبب غريب . . ففى اللغة الروسية نجد أن كلمة « كراسنيا » معناها احمر . . ومعناها جميل ايضا .. فالميدان باللغة الروسية اسمه : الميدان الجميل وفى اللغات الاخرى اسمه الميدان الاحمر . . وعلى القباب العالية توجد النجمة الحمراء . وهى تتحرك مع الريح .

وفى الكرملين هذا جاء نابليون سنة ١٨١٢ وربط خيوله . ولم يفعل ذلك الا لان موسكو كلها قد احرقها الروس حتى لا يستولى عليها . فلم يجد الا هذا المكان تحتمى فيه خيوله .

والذى يرى الاتساع الهـــائل لروسيا وقسوة الجليـــد وطول الطرقات والغـــابات .. ويتذكر ما فعله نابليون وهتلر من اجل الاستيلاء على موسكو يؤمن بأن كلا الرجلين مجنون !

وقد اعجبتنى عبارة قالها الاديب الامريكى ارثر ميللر عندما زار روسيا هو وزوجته المصورة انجه مورات : ان نابليون وهتلر عندما فكرا فى غزو روسيا يشبهان رجلا راح ينفخ صدره وينفخه آملا ان يطير الى القمر !

واذا نظرت الى صورة هـذه المدينة بعد الحرب مباشرة لعرفت كم بذل الشعب من التعب والعرق والحرمان والاصرار على أن تكون لهم مدينة .. او تكون لهم فى كل مكان مدينة .. وان يكون لهم فى كل مدينة راى .. وان يساهموا بالعمـل والعلم فى كل مجالات المعرفة والتقدم . وفى كل مكان بجيوش السلام وانتصار الحياة على الدمار وعلى الفناء ..

ان دستويفسكى عندما وصف الشعب الروسى فى احدى رواياته .. قال : سوف يكون على أيديهم خلاص التعساء فى كل مكان . كان ينظر الى المستقبل . ولم يتجاوز الحقيقة ..

من الكلمات الروسية التى تعلمتها بسرعة .. لانها تكررت كثيرا وضـايقتنى كثيرا كلمة : زاموك .. ومعنـاها مقفل .. المتاحف مقفلة .. والصحف مقفلة .. ومن الطبيعى أن تكـون الكثير من الاماكن « زاموك ».لاننا فى اجازات رأس السنة .. وليس فى الامكان حشد الناس فى مكاتبهم ومصانعهم بمناسبة زيارتى الى موسكو .

ولكن هذه الكلمة سوف تختفى عندما ننطلق الى احضان موسكو وغيرها من المدن الكبرى الباهرة !



اختارتهم الحياة
ولكنهم..
اختاروا الموت!



كانت ليلة راس السنة .. درجة الحرارة تحت الصفر كما هي العادة . ولكن هنـــاك حركة على الارصفة وفي الشوارع . والاضاءة باهرة . ويقول الذين يعرفون الكثير : انها غير عادية .اننا محظوظون

ومع ذلك فلا مكان يمكن ان نذهب اليـه . كل المطاعم محجوزة منذ أيام . والناس قد انتقلوا الى بيوت الناس . ونحن غرباء فليس لنا احد . وهذا طبيعي . وأمامنا ساعات طويلة حتى يجيء منتصف الليل عندما تتعانق العقارب في كل ساعة وفي كل مكان

ومع ذلك هناك معارض مفتوحة : الشـــوارع .. فموسكو هي مدينة الادباء والفنانين والمفكرين الجالسين على القواعد الحجرية في اهم شوارعها .. وهذه التماثيل قد أغرقتها الاضواء وجمعت حولها الناس . ومن الغريب ان اكثر هؤلاء الادباء اعمارهم قصيرة ، لاسباب شخصية . واقامة التماثيل لهـم استئناف لحياتهم التى انتهت بسرعة . وأحياء لهم في قلوب الناس ..

فهناك تماثيل الثلاثي العظيم : تولستوى وجوركي وتشيخوف .. اما لينين ابو الاتحاد السوفيتي فهو في كل مكان . في كل متحف ، وكل مكتب ، وكل مصنع وكل شارع وكل مدينة .. ومقبرته تحفة وهي مفتوحة ثلاث ســاعات يوميا فيما عدا يوم الجمعة - وأمام

المقبرة طوابير طويلة جدا على مدار السنة وتحت وفوق الصفر . وفى داخل المقبرة ترى وجه لينين ويديه على صدره : كدليل جديد على تقدم التحنيط الحديث عند العلماء السوفيت .. ولينين قد توفى سنة ١٩٢٤ . ولكن من يرى وجهه يخيل اليه انه مات فورا ، ولكنه لم يدفن بعد !

وفى الطابور امام ضريح لينين من الممكن ان تجد من يقول لك : معك عود كبريت . وبسرعة تخــــرج الولاعة من جيبك وتشعل له سيجارته . وينصرف لقد تعب من الوقوف منذ الصباح وسوف يعود غدا . أو بعد غد . والناس لا يدخنون فى الطابور وقد تسأل : كيف ان هنـــاك أناسا كثيرين يطلبون منك عود كبريت .. والذين يعرفون يؤكدون لك : أن هـــذه مسألة عادية جـــدا . فالروس لا يشعرون بأى حرج فى أن يطلب منك انسان سيجارة فهو يرى ان هذا النوع من رفع الكلفة بينك وبينه . وقد يفعـــل ذلك سائق سيارة أو طبيب .. فالذى حدث ان سجائره انتهت وان المحلات قد اقفلت وان فى استطاعتك أن تفعل ذلك .. قال لى احد رجال السفارة ان طبيبا زاره لعلاج زوجته .. وبعـــد ان كشف الطبيب على الزوجة اقتـــرب من الزوج : معك سيجارة . فأعطـــاه طبعا واندهش .. والدهشة تذهب مع دخان السيجارة . فهذه مسألة عادية تحدث فى اى وقت وفى اى مكان من اى شخص .. انهم هكذا يعملون الاشياء البسيطة ببساطة .. وليس عليك الا ان تسأل لتفهم وتذهب دهشتك .

واذا انصرفت بعد زيارة ضريح لينين ، أو بدون زيارة ، فهناك الشوارع الواسعة النظيفة المضاءة .. واذا لم تستطع ان تمشى فى الشـــارع ، فاجلس فى اية سيارة واسمع ما يقـــال لك عن هذه الصواريخ اى الفنانين والمفكرين والادباء ، التى اضاءت واشتعلت من اجـــل الانسانية .. ثم خمدت لتضىء من جديد للنـــاس بالكلمة والنغمة !

فهذا التمثال لشاعر روسيا بوشكين .. وهو أبو الشعر الروسي او ابو الادب الروسي كله . وهو رجل لم يشأ أن يقلد الاساليب الادبية السائدة في عصره ، فقد كانت الموضة في الادب ـ كما هي في الازياء الآن ـ ان يقلد الادباء باريس..ولكن بوشكين هذا الروسي مائة في المائة .. وان كان جده من ناحية الام من اصل حبشي .. كان عبدا .. ارسلوه هدية الى بطرس الاكبر . وعلمه بطرس الاكبر . وكان بوشكين لايشعر بدم اجداده .. وبوشكين شاعر عظيم . وكان يستمد مادته من الناس ، ومن عذاب الناس .. الفلاحين والعمال . وكان خصومه يسخرون منه بقولهم : في استطاعة اي عامل أن يجد اسمه وعنوانه في قصائد بوشكين !

وكان يحب الحياة . ويستمتع بها بعمق وبعنف . وكان قصير القامة نحيفا . ولكنه مليء بالحيوية . وقد وضعت حيويته موضع الاختبار . عندما احب فتاة جميلة ،كان القيصر لايرفع عينه عنها. وقد حاول القيصر ان ينال من الشاعر العظيم . فشجع شابا فرنسيا كان قد تبناه السفير الهولندي أن يعاكسها وعاكسها وحدثها . وكان بينهما الكثير ودارت الشائعات وتعالت الهمسات واختنق الشاعر بالفضيحة .. واتفق الزوج والعاشق على المبارزة . وفي ٢٧ يناير سنة ١٨٣٧ تمت المبارزة وانتهت بمقتل الشاعر العظيم بوشكين بعد يومين .. عن ٢٧ عاما !

وكذلك مات شاعرنا المتنبي !

وفي شارع آخر نجد تمثالا للشاعر لرمنتوف .. وهو من اصل اسكتلندي وهو ايضا ضحية الخلافات العائلية . فالذي يدور في بيته جعله يكفر بالبيت والاهل والاب والام . ويضيق بكل مايربط انسانا بانسان .. كان صغيرا عندما مات بوشكين بكى عليه كأبيه وامه واقاربه كلهم . ونظم قصيدة اسمها « وفاة شاعر » تناقلها الناس سرا . واصبح شهيرا في روسيا كلها .. لانه صاحب اول منشور شعري ضد القيصر . وضد الذين اغتالوا الشاعر بوشكين.

ولخلاف حول فتاة جميلة . دارت مشادة بينه وبين السفير الفرنسى وطالبه ابن السفير بالمبارزة وجاء يوم المبارزة يوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٤١ . واصابه ابن السفير . فمات الشاعر ارمنتوف من ٢٧ عاما !

وفى شارع آخر ستجد زحاما حول تمثال .. الاضواء باهرة. وقد كانت احدى سيارات التليفزيون تلتقط صورة لفتاة جميلة وقفت أمام تمثال الشاعر والروائى والممثل والثورى والجنون والعبقرية التى اشتهرت فى روسيا باسم مايكوفسكى . وقد ولد فى مدينة اسمها بغدادى فى جمهورية جورجيا . انه نموذج للحياة والثورة والقلق والكبت الذى يولد الانفجار فحياته كانت ماساة من الانفجارات الداخلية والخارجية . وكان اكبر واقوى واكثر تقدما من عصره . وكان قوى الصوت يريد ان تسمعه الاجيال القادمة . أحب وفشل ، وفشل ولم ينس انه فشل . وكانت حياته بعد ذلك انتقاما من الفشل ومحاكمة لكل شىء حوله .. وكل انسان حوله .. انه أقام محاكمات فى راسه لكل الناس وكل المبادىء وكل القيم .. وليس عجيبا انه عندما يمشى فى الشارع أن يتحدث اليه انسان فيصرخ فيه هو قائلا : لاتقاطعنى اننى اكتب !

ولما سئل مرة اخرى عن هذا المعنى قال : عندما امشى فى الشارع .. اتخيل مكتبا واتخيل نفسى جالسا واننى اكتب !

وعندما كان صغيرا فصل من المدرسة ، واغلقت المدرسة كلها لانه ذهب الى الكنيسة وشجع الاطفال على أن يتغنوا بنشيد الثورة الفرنسية !

عندما أحب ، تقدم للفتاة وسألها : هل تتزوجيننى ؟ فقالت : متأسفة . او لم تقل متأسفة . وانما هزت راسها دليلا على الرفض. فهى لم تقل كلمة ، فهى لم تبذل جهدا فى الرفض . لم ترفضه

بشفتيها وانما حشدت له راسها وشعرها واذنيها وشفتيها وعنقها وكتفيها . انها مظاهرة من الرفض لم ينسها مايكوفسكى . ولذلك عاد الى نفسه يهتف بسقوط كل شيء : تسقط أنت ويسقط فنك ، وحياتك ، ومجتمعك وكونك .. يسقط السقوط !

كان اكثر الناس بكاء فى جنازة لينين سنة ١٩٢٤ . واعلن انه فى هذه الجنازة لم يبك فقط عبقرية الرجل الذى مات .. انما بكى كل شيء . وبكى نفسه اولا . وفى احدى المسرحيات التى قام ببطولتها : حاكم الاشياء . حاكم المدينة وحاكم القرية .. واعلن : هذه الاشياء لها أذان . والناس لهم عيون .. مزقوها .. حطموها !

وهو فى قمة الشهرة وكل شيء حوله يستدرجه لان يعيش ، احس ان الدنيا كلها تعتذر له عما أصابه .. وتبدل ريشها والوانها لعله يرضى .. انتهز هذه الفرصة ليعتذر للدنيا .. ويعتذر عنها .. وهو يقول : لا أمل فى الخلاص من اى شيء .. او من اى احد !

وانتحر مايكوفسكى وعمره ٣٧ عاما !

اما هذا التمثال العملاق فهو لرجل يسمونه شاعر الفلاحين انه : اسينين .. جاء من الريف ، ولم يشأ أن يغمض عينيه عن الريف ـ وعن الغابات والجبال والتلال . انه حزين على ان المصانع أكلت القرى .. وأن المزارع سحقت الغابات .. وان الدخان هو الضباب الطبيعى فى صورة هزلية .. انه يبكى على ماضى روسيا ويقول : ياحقول القمح ، ياماضى روسيا المجيد ..

ان اسينين شديد الحساسية .. شديد اليأس عميق القرف .. لايعرف كيف يتوافق .. انه نموذج للزراعة التى لاتستطيع ان تتكيف مع الصناعة .. ولذلك كان ضحية التحول العظيم .. انه ابرز صورة للعبقرية والجنون .. انه عنيف ، حاد ساخط ، يحطم الاشياء والابواب والنوافذ لاسباب تافهة . ولكنه يراها معقولة

وعندما جاءت راقصة الباليه الامريكية ايزادوره دنكان بدعوة من الحكومة السوفيتيةلانشاء مدرسة للرقص ، كانت ملكة الرقص عمرها ٤٤ سنة وعمره ٢٧ عاما . احبته من اول نظرة . لاتعرف كلمة روسية واحدة . تعلمت عبارة واحدة لتقولها له : اننى اقبل التراب الذى تمشى عليه ..

اما هو فرفضها . ضربها . صفعها . لعنها . هرب منها . طاردته روضته وتمسكت به وتزوجته .. نقلته من روسيا الى فرنسا الى امريكا . وكان فى القطار والعربات عنيفا ثائرا . يحطم كل مايقع تحت يديه . وفى باريس القى بالمقاعد من النافذة . ضرب اصدقاءه . دخل السجن واستطاعت ايزادوره أن تخرجه من السجن بعد ايام وادخل مستشفى الامراض العقلية فى باريس واخرجته ايضا . حاول اطلاق الرصاص عليها . وهربت . ولكنها عادت اليه . وكان يحمل معه حقيبة يد كبيرة . والموت لن يقترب منها . وفى احدى المرات نسى الحقيبة وفتحتها فوجدت كل ملابسها واشياءها الضائعة .. وهربت منه فى مجاهل روسيا وعاد الشاعر الريفى الى فندق لينينجراد - الذى نزلت به - وقطع شريانا .. وبدمه كتب آخر قصيدة له ثم شنق نفسه ومات فى الثلاثين من عمره !

اما ايزادوره فكانت هى الاخرى صورة مؤلمة انيقة للتعاسة . ولداها غرقا فى نهر السين .. اما هى فلم تكن تطيق أن ترى الاطفال بعد ذلك وكانت تقول : الا أستطيع أن أعيش فى عالم به أطفال لهم شعور ذهبية ..

وماتت فى حادث سيارة .. ويقال انها انتحرت فقد لفت « الايشارب » الطويل الاحمر الذى كانت تتفاءل به حول العجلة الخلفية للسيارة .. وانطلقت السيارة واختنقت وهى تجلس عند عجلة القيادة .. المهم انها ماتت بيديها وكانت فى المقدمة !

أما هذا التمثال اذا وقفت امامه فمن السهل معرفتـه فهو الموسيقار تشايكوفسكى . هو الآخر عبقرية عنيفة غريبة .. ومن اسرة غريبة السلوك الاجتماعى . أحب فتاة ذات اربعة عشر عاما .. راسلها ولم يرها . واخيرا تزوجها . اكثر رواد المسارح يعرف أعماله العظيمة : الفتنة النائمة .. روميو وجولييت .. كسارة البندق .. فرانشيسكا دارميني .. عذراء اللورين ـ أو جان دارك وهو صاحب الموسيقى الفخمة والتوزيع الاوكسترالى الرائع .. زار اوربا كلها .. واصابته الكوليرا فى سنة ١٩٨٣ ..

وتماثيـل اخرى للروائى العظيـم دستويفسكى الذى ترجم د. سامى الدروبى أعماله الكاملة الى العربية .. والروائى جوجول الذى كتب الرواية الشهيرة .. « المفتش العام » والتى انتقد فيها البيروقراطية الروسية بعنف .. وكان هو أيضا شديد الحساسية قلقا ساخرا . وكان يقول عن نفسـه : انى أجعل الناس يضحكون على كل مايستحق الضحك .. وكان يقول ـ ومعه حـق ـ ان عالمنا كريه ياسادة !

وتمثال للقصصى والمسرحى تشيخوف الذى توفى عن ٤٤ عاما سنة ١٩٠٤ . وهو كاتب المثقفين ..

وتمثال للفنان العظيم جوركى الذى توفى سنة ١٨٣٠ عن ٦٤ عاما

* ملحوظة : ليس فى القاهرة ولا فى اية
عاصمة عربية تمثال لشاعر او اديب ..
التمثال الوحيد لامير الشعراء شـوقى
موجـود فى احـدى حدائق روما ..

هناك تماثيل اخرى اكثر انتشارا وعمقا انها مئات والوف الكتب عن هؤلاء العظماء .. وهناك المسارح فى كل مدينة فى الجمهوريات السوفيتية .. ففى موسكو وحدها ثلاثون مسرحا ومائة سينما وخمسون متحفا . مسرح البولشوى سيحتفل بمرور قرنين على

انشائه بعد خمس سنوات .. وفى موسكو مكتبة كبرى هى مكتبة لينين بها عشرون مليون كتاب فى مائة وستين لغة .. وفى روسـيا ملايين الطلبة الصغار والكبار يعرفون هذه الاسماء .

دارت مناقشة بينى وبين سائق السيارة التى خصصها لنا اتحاد الكتاب السوفييت . قلت له : انت تشبه راسبوتين .

مع انه لايوجد شبه بينهما . وانما حاولت أن اضحك معه .. ولكنه قال : لا .. بل أشبه تراس بولبا !

والروس أو الذين قرأوا قصة جوجـول التى اسمها « تراس بولبا » .. يعرفون الفارق بين ما أقول وما يقول هو .. فشخصية تراس بوليا .. رجل ضخم مسلح عنيف .. والسائق فيه هـذا الشبه ، مع فارق السلاح فقط !

وعندما قلت لسائق آخر ، مداعبا ايضا ، انت : راسكو لنكوف !

ضحك وهو يقول : نسيت أن أكون مثله وانا صغير !

والعبارة طبعا غير مفهومة الا لمن قرأ رواية « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى . فبطلَ الرواية طالب اسمه راسكولنكوف ..وهو الذى قتل صاحبة البيت وهو يقول : هل هى جريمة أن تقتـل سيدة قد استغلت مئات الشبان .. مصت دمهم .. فقتلتهم !

فالسائق قد فاته ان يفعل ذلك وهو شاب !

الى هذه الدرجة يعرف كل المتعلمين فى روسيا تاريخهم وادبهم .. ويتذوقونه ..

قلت للسائق ايضا ـ عن طريق الترجمة : اساليه ما الذى يقول .. اهى قصة جاسوسية .. ؟

فثار السائق قائلا : لا .. انها قصة بوليسية .. ثم عاد يقول : الروسى ليس جاسوسا .. انه مخبر فقط !

ولم تكن هذه التفرقة موضوع مناقشة .. ولا فى ذهنى هـذا

المعنى .. ولكن السائق يعرف هذه الفروق الدقيقة بين أن نكون الانسان جاسوسا وبين أن يكون مخبرا ..!

ولابد ان الرئيس بومبيدو عندما زار سيبريا الجديدة كان يدرك مدى حساسية الروس لمعانى الالفاظ والمعانى عندما قال فى بداية كلمته : وانني اتذكر كلمة لاديبكم تورجنيف : كل واحد ضرورى لروسيا ، وروسيا ضرورة للجميع ..

ثم قال : هذه العبارة تدل على اعمق معانى الوطنية والروح التعاونية بين أبناء الشعوب السوفيتية ..

وهناك تماثيل للعمال .. وتماثيل لسفن الفضاء .. أو لرحلات الفضاء .. ونماذج ، ومئات النماذج للسيارة التى ركبها لينين عندما ذهب الى ليننجراد .. فكل من او ما ادى عملا يجب انيبقى

وبعد ذلك تنفتح لك موسكو ..

ففى اطراف موسكو الشاسعة توجد « البانوراما » وهى مبنى دائرى .. لان فى داخله لوحة دائرية لمعركة بوردينو التى انهزم فيها نابليون وهو يحاول الاستيلاء على موسكو .. فاحرقها الروس امامه ، بعد أن استدرجوه اليها .. كان قائد الروس هو الجنرال كوتوز . وفى اللوحة التى طولها ١٥٠ مترا وارتفاعها ١٥ مترا نجد ان نابليون كان يحارب فى الصفوف الامامية للمعركة .. عند نقطة المواجهة .. وعندما جرح القائد الروسى استبدلوا به قائدا آخر فالمعركة لاتحتمل التأجيل .

الفنان الذى صمم هذه اللوحة الحية البارزة الناطقة المذهلة روسى من أصل فرنسى عاش فى المانيا .. وبعد أن احرقت أعادها مرة أخرى ..

اما المتحف الذى يحمل اسم الشاعر بوشكين ، ففى داخلهلوحات لكل مدارس الفن .. وخاصة الفن الانطباعى الفرنسى .. وفيه تماثيل اغريقية ورومانية .. وفيه جناح فرعونى . وبه تحف فى غاية الرقة والجمال . وقد أدهشنى ان اجد امراة فرعونية تسبح فى

النيل .. ويبدو انها غشيمة مثلى .. ولذلك أتوا لهـا بصندوق خشبى تتعلق فيه لكى تستطيع تحريك ساقيها ورفع رأسها من تحت الماء .

وامام متحف بوشكين يوجد حمام سباحة فى الهواء الطلق . ماء الحمام فى درجة ٤٠ فوق الصفر .. ودرجة حرارة الجو ٢٠ تحت الصفر .. ويخرج المستحم من الماء الساخن الى الهواء البارد جدا ويقال ان الصحة تجيء من هذا الفارق الهائل بين الدرجتين وخصوصا اذا اتيت بأكداس الجليد ودلكت بها جسمك مباشرة . انني ارتجف لمجرد كتابة هذه العبارة !

ورغم خوفى من مجرد النظر الى المستحمين .. حاولت ان أقترب .. ثم عدلت .. ثم حاولت .. ثم عدلت .. واخيرا وجدتنى غارقا فى بخار الماء الذى يخرج من حمام السباحة ويتجمد لمجرد مفارقته لسطح الماء .. واحسست انها مغامرة مجنونة . ولا ازال اعتقد ذلك وأعتقد أن سبب اصابتى بالزكام هذه الايام رغم عودتى من موسكو منذ اسابيع يرجع الى اننى تذكرت فقط اننى وقفت هناك !

وقد تذكرت قصة قصيرة لاديب روسيا سواجنتسين الذى فاز بجائزة نوبل فى الادب . تقول القصة ان النمل كان يمشى على قطعة خشب .. وفجأة امتدت يد والقت بقطعة الخشب فى الموقد .. وراح النمل يزحف على اطراف الخشبة محاولا الهرب من النار .. حاول .. وحاول .. ولكنه لم يفلح .. واخيرا وتلقائيا اتجه النمل كله الى النار !

وفى كل المتاحف والمعارض التى رأيتها فى موسكو وفى المدن الاخرى لم اجد اهتماما بالسريالية او الرمزية .. او هذا الغموض الشائع فى اوروبا وامريكا .. لا فى المعارض ولا على المسارح .. فلا هناك سيريالية ولا دادية ولا تكعيبية .. ولا مسرح اللا معقول .. ولا التسجيلى .. ولا المسرح الحى .. ولا مسرح الخبز واللحم .. ولا المسرحيات العارية .. وانما العقل بداية ونهاية كل شيء

والطريق الواحد الوحيد المضمون هو : الوضوح . لانه من المفروض ان يفهمك كل الناس .

ولا شك ان خروتشيف كان روسيا مائة فى المائة عندما ذهب الى احد المعارض فى موسكو فى ديسمبر سنة ١٩٦٢ يرافقه الادباء والنقاد والفنانون .. واستنكر المعروضات لانها غير مفهومة .. ومما قاله عن موسيقى الجاز مثلا : انها غازات فى المعدة !

واتجه الى الفنانين وقال لهم : انتم شواذ وتستحقون السجن عشر سنوات .

وعندما نظر الى احدى اللوحات السيريالية قال : هذه لوحة رسمت بذيل حمار !

وكانت هذه هى البداية (لنهاية) الغموض والشذوذ ..

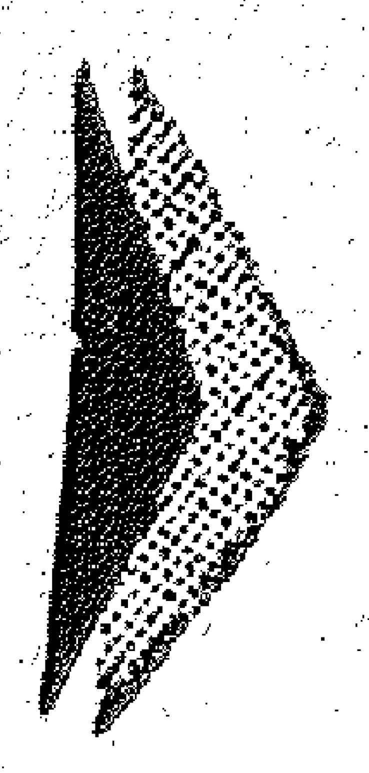
وشولوخوف اديب روسيا الفائز بجائزة نوبل فى الادب هو صاحب العبارة التى تقول : النماذج السيئة كالمرض تعدينا .. ابعدوها عن انوفنا وعيوننا !

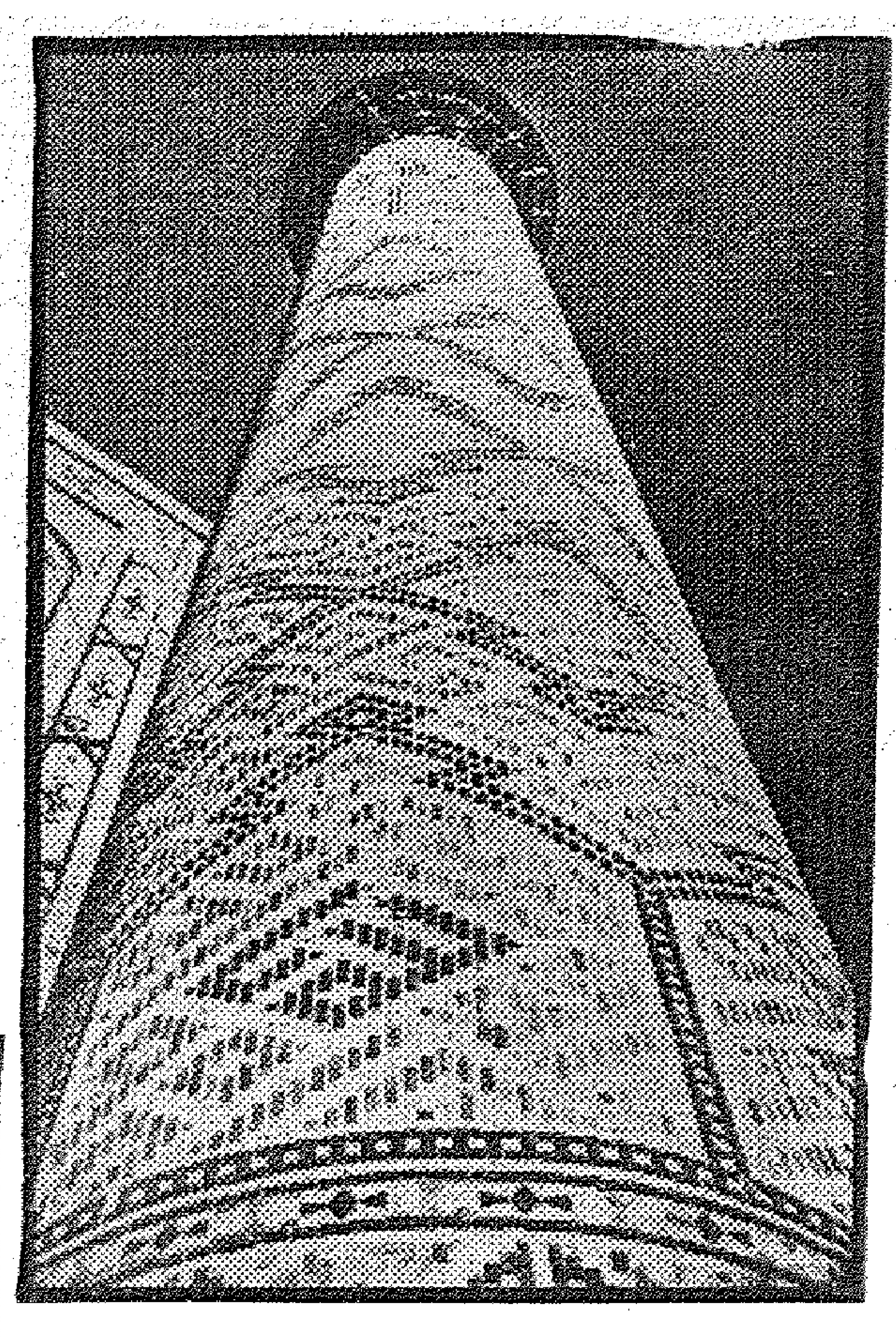
◎✤◎

وفى شوارع موسكو بعد ذلك صور وتماثيل لبابا نويل .. والروس لا يسمونه كذلك . ومن المعروف الآن ان الكنيسة الكاثوليكية قد اعلنت أن شخصية بابا نويل هذه خرافة ، لم يكن لها اى وجود تاريخى .. وقد سبق الروس الكنيسة عندما انكروا معناه .. ولذلك فهم يطلقون على بابا نويل اسم : ابو الجليد .. وهو ايضا صديق للاطفال .. يذهب اليهم لانهم ينتظرونه محملا بالهدايا والامنيات الطيبة ..

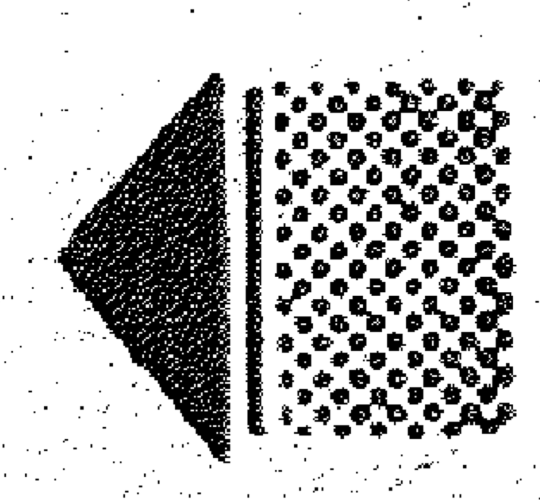
وانتهت ليلة راس السنة بعد ان عيدنا على هؤلاء العظماء الواقفين فى الشتاء والصيف .. والذين لا يعرفون نهاية او بداية للعام .. لانهم فوق الزمن .. خالدون !

نحفة لفن العمـــارة العربية الشرقية أوالاسيوية فى مدينه سمرقند بجمهورية اوزبكستان



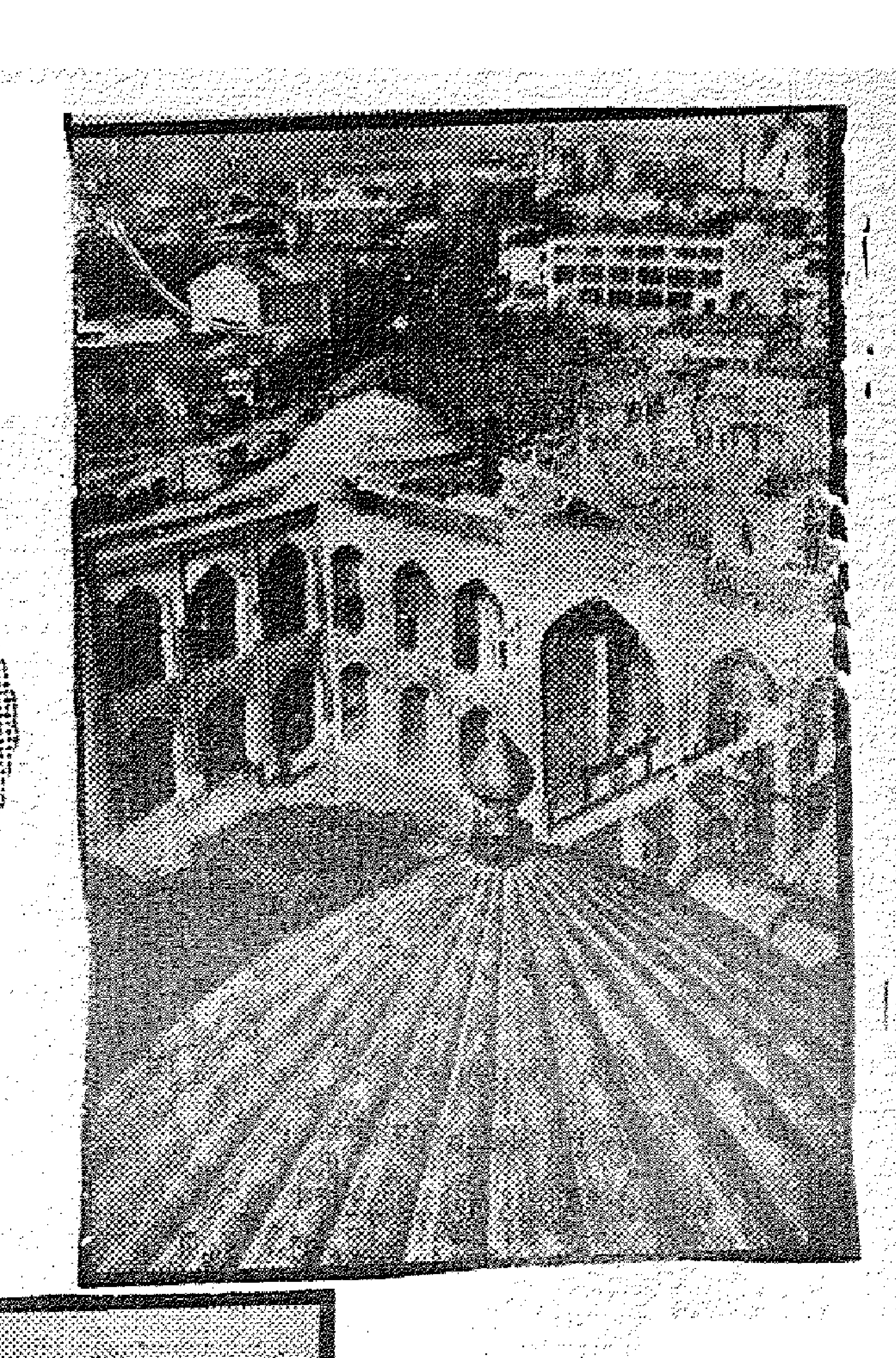


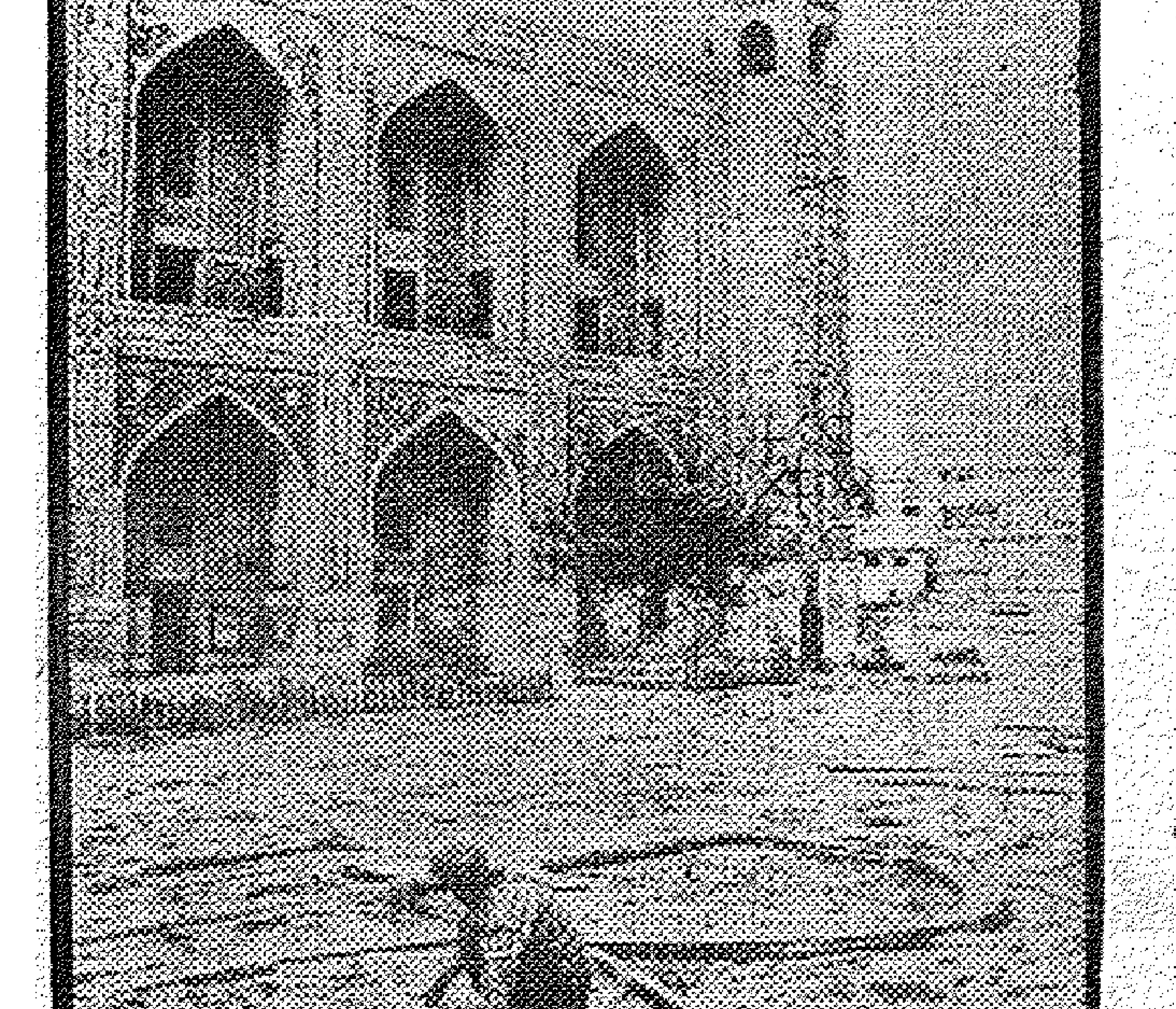




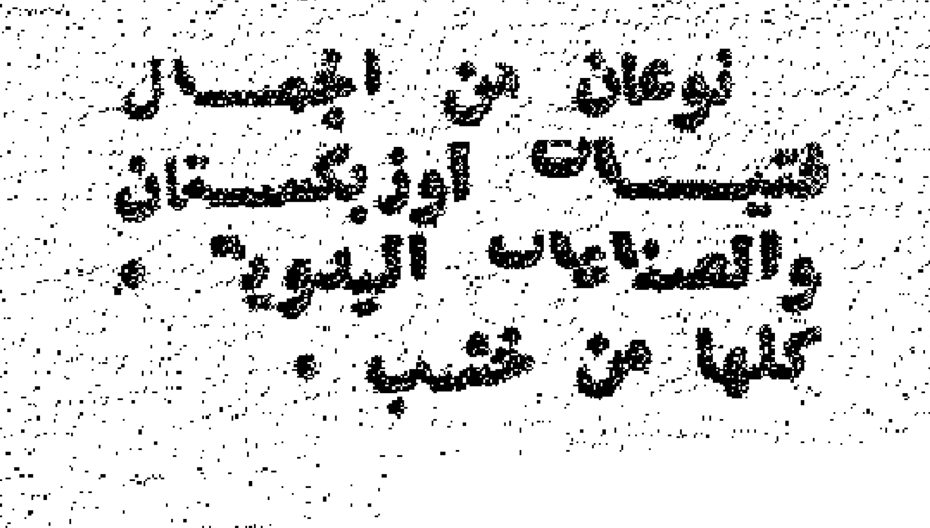
وهذا نموذج للمفارقات التى تتعايش معا فى اوزبكستان .. الاغنام ومحالج صوف الاغنـــام .. المآذن والمداخن ايضا !

نموذج للابنية الفخمة ذات الطراز القديم تجدها في كل مكان بجمهورية اوزبكستان في نفس الوقت تجد العمائر المودرن جدا .





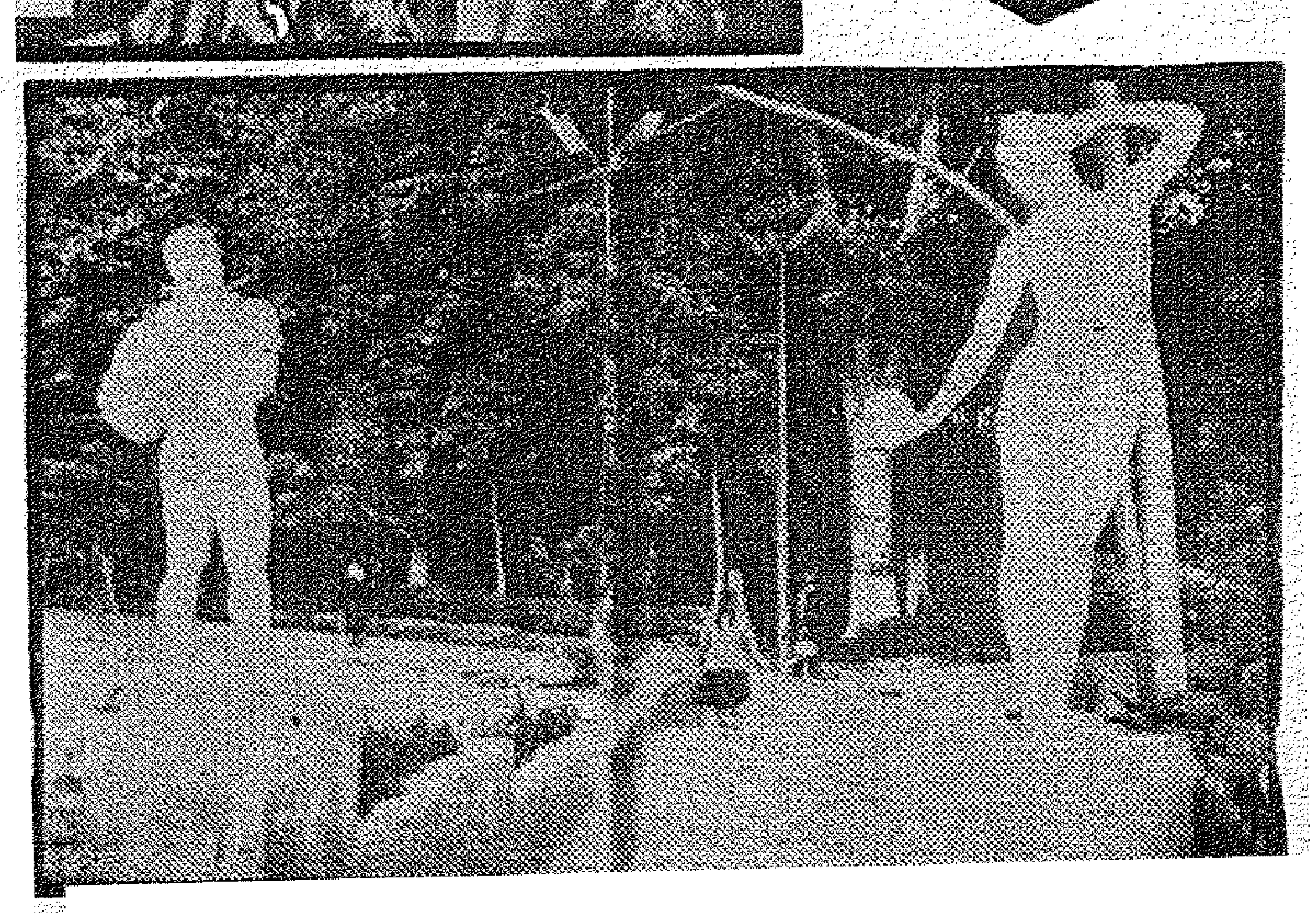
بنـاء فخم من اهم ميادين مدينة سمرقند .. واضح انه المسجد الشـهير المعروف باسم تيللا كارى .

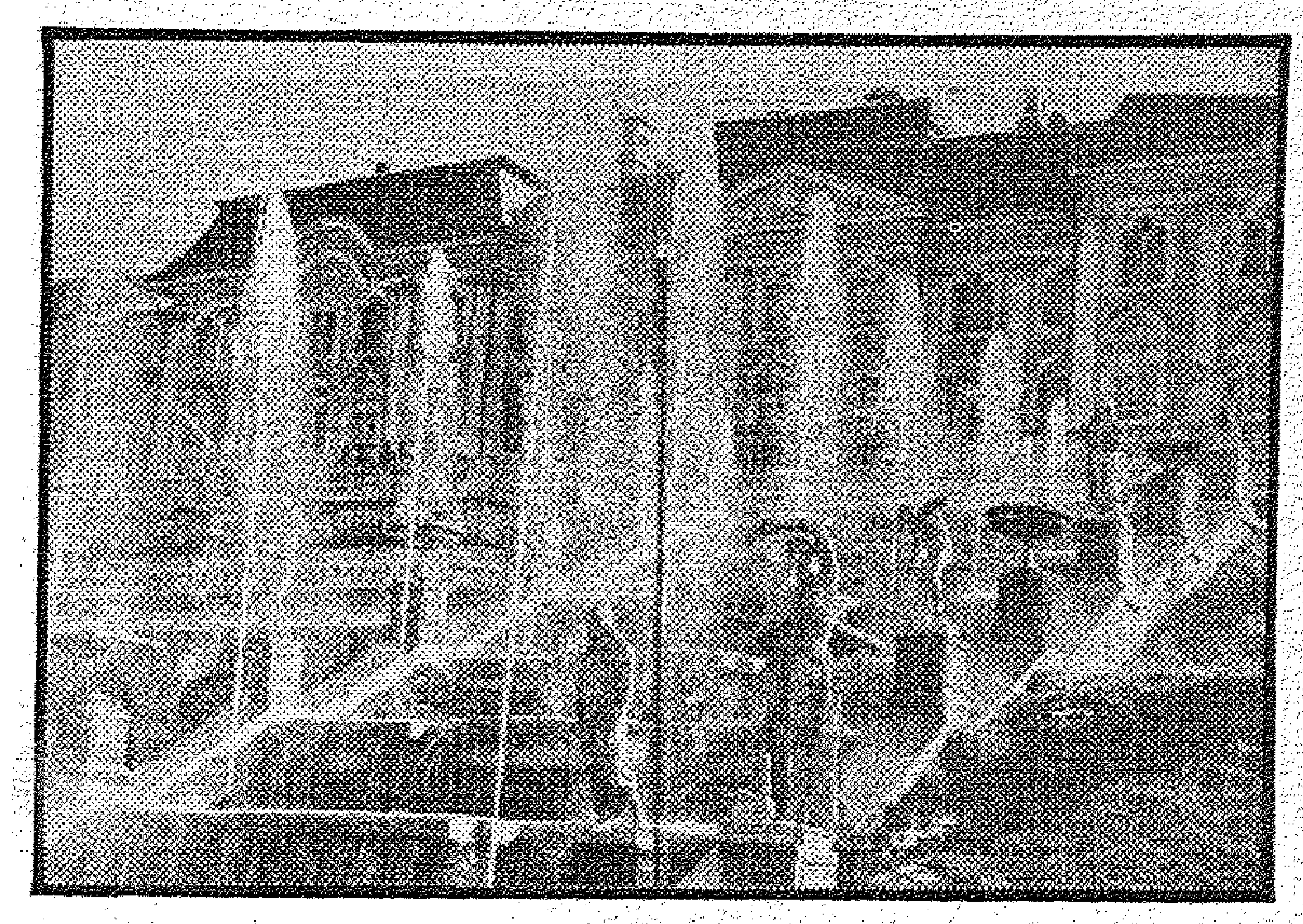


نوعان من الجمال فتيات اوزبكستان والصناعات اليدوية ، كلها من خشب .

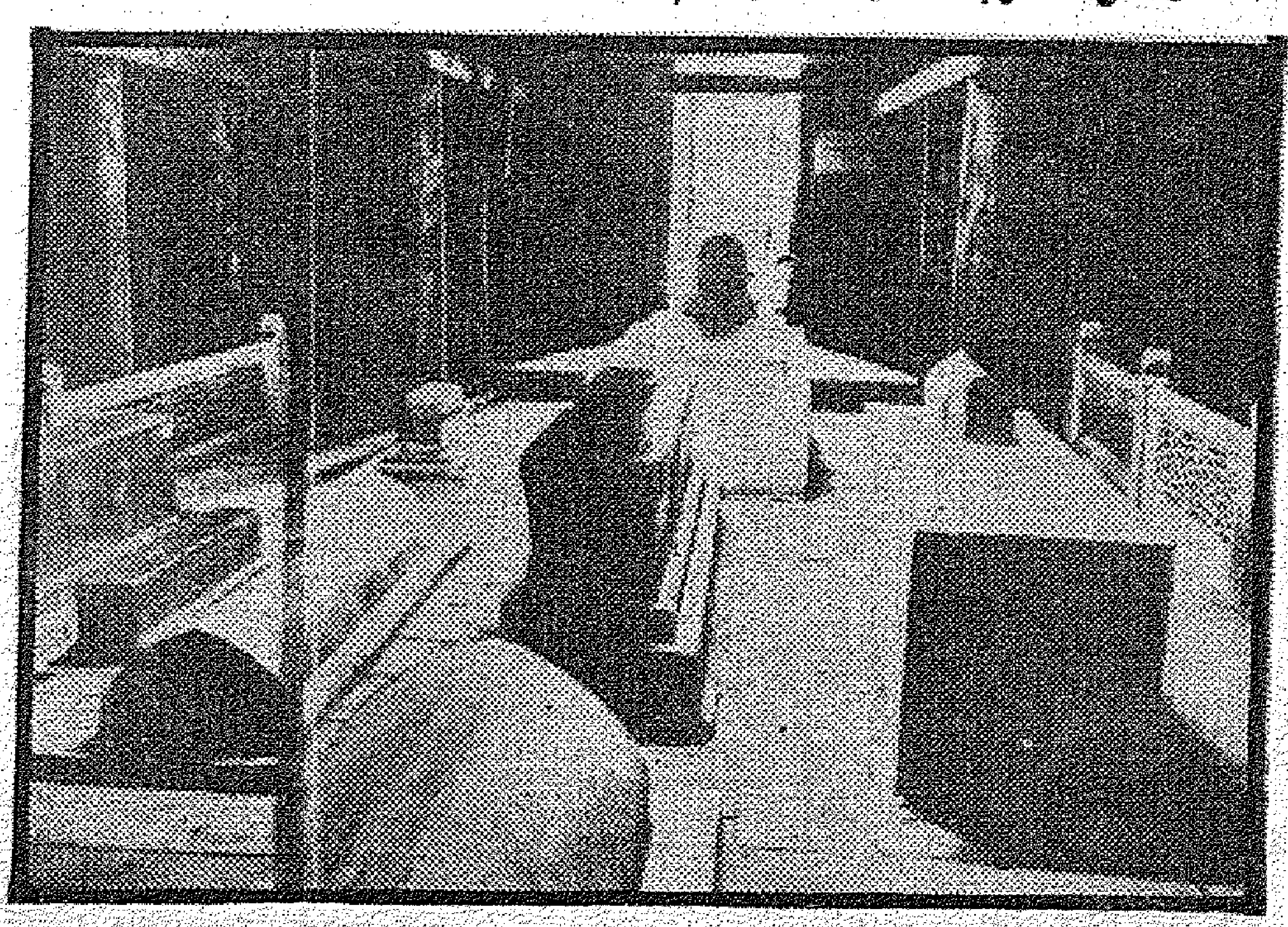


في مدينة سمرقند وفي حديقة اسمها « الراحة والثقافة » يوجد عدد كبير من التماثيل الجميلة ، التي اختير لها عدد من السلالم المدرجة .

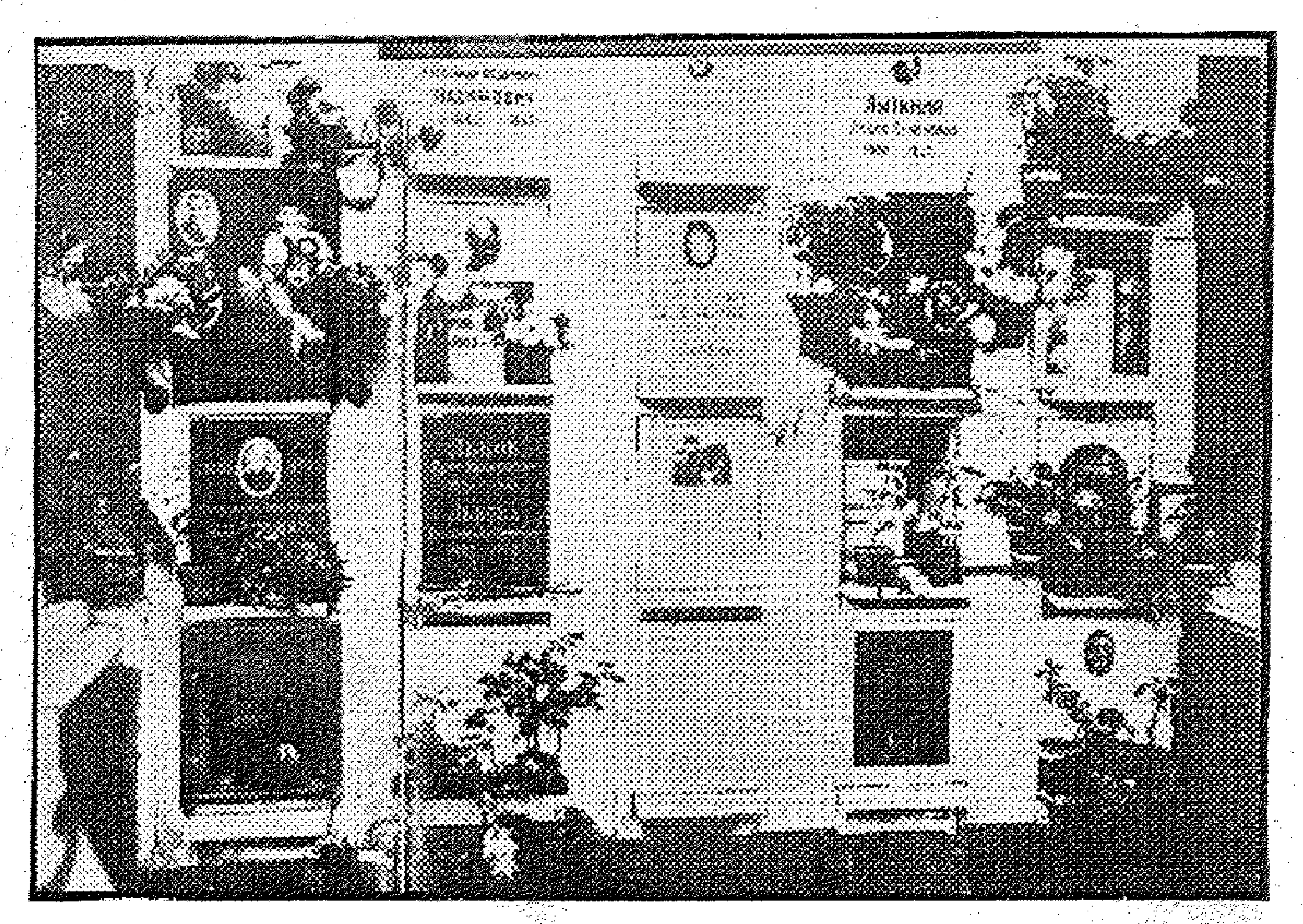




واجمل ما ترى فى مدينة لينتجراد هذه النافورات الذهبية التى اقامها بطرس الاكبر على البحر . اما القصر وكان يسمى فرساى روسيا فقد صممه اثنان من المهندسين هما لوبلون ورستريللى فيما بين ١٧١٥ - ١٧٥٠ . وقد اتخذ هذا القصر مقرا للقياصرة جميعا .. اما القصر والنافورات فقد حطمها الالمان فى الحرب العالمية الثانية ثم اعيد انشاؤها من جديد ..



فى سمرقند وفى مقبرة جار امير توجد مقبرة تيمورلنك



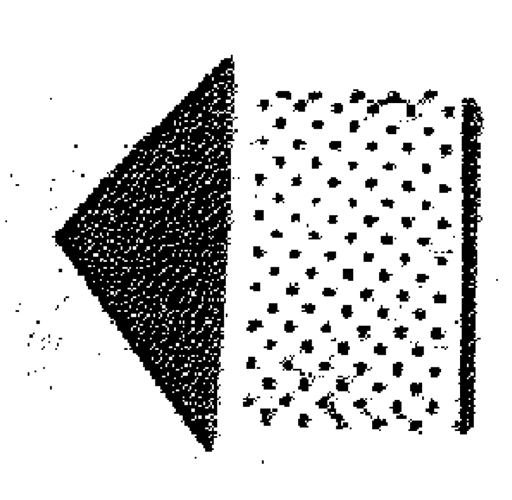
هذا الحائط وضعت في فتحاته رماد جثث عدد كبير من مشاهير روسيا .. مثل جوجول وتشيكوف وتولستوى وماياكوفسكى وايسينين واهرنبورج والموسيقيين ايضا روبنشنين وسكايابين وبروكوفييف .



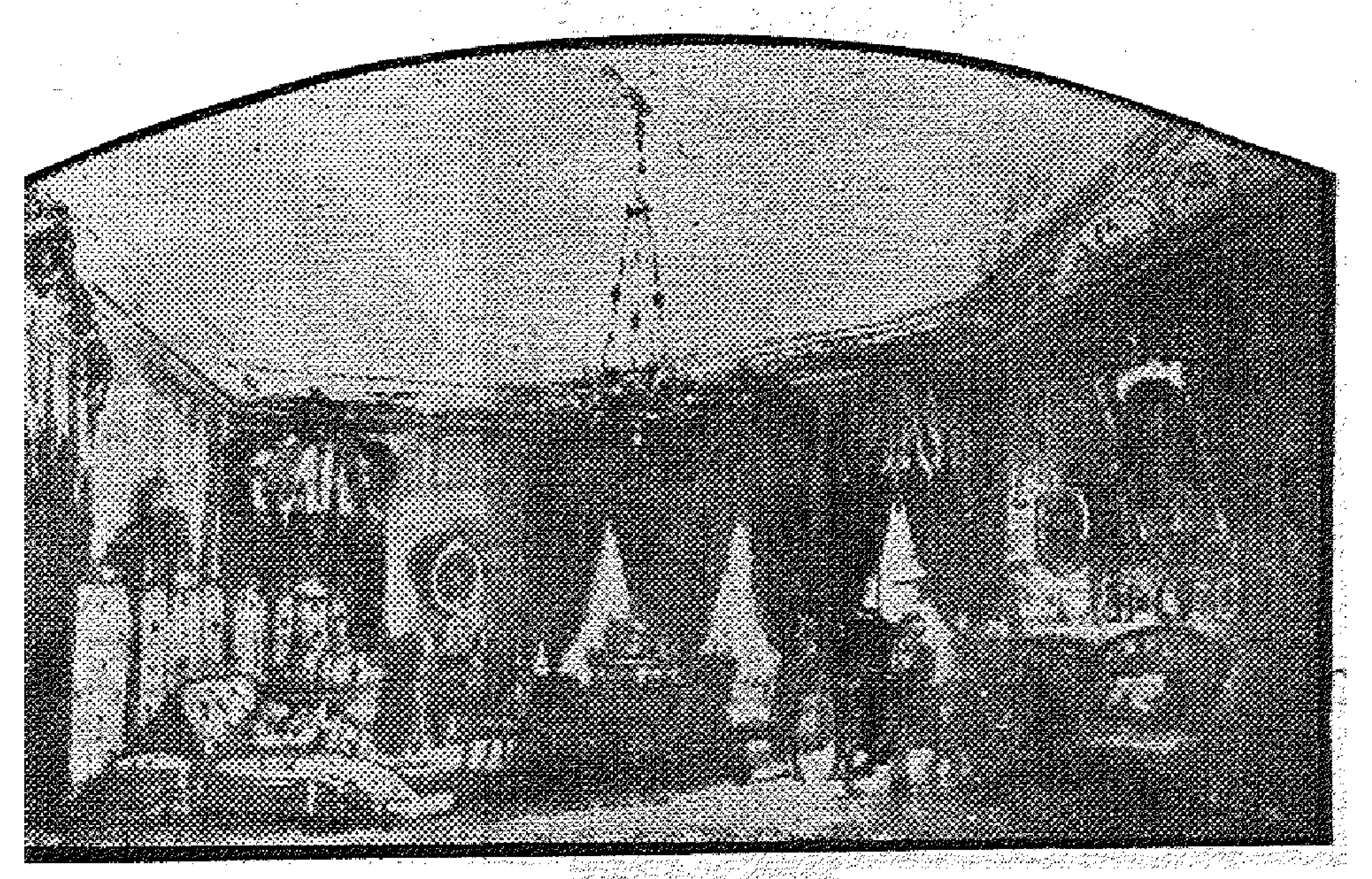
مقبرة الموسيقار تشيكوفسكي في مدينة لينينجراد .



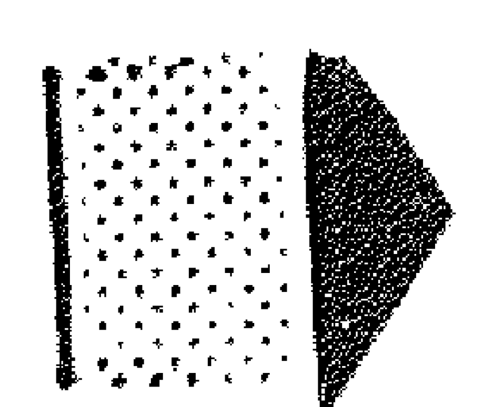
هــذا هو الكاتب العظيم دستويفسكى الروائى الروسى الكبير مؤلف الاخوة كرامازوف والابلة والجــريمة والعقاب وغيرها .



مشهد من مشاهد مسرحية (الابلة) التى اخذت عن رواية ديستويفسكى الشهيرة وقد اخرجت فى موسكو سنة ١٩٢٤ .



فى هذا البيت كتب
ديستويفسكى قصته
(الجريمة والعقاب)
.. وبطلها المعروف
راسكيلنوكوف

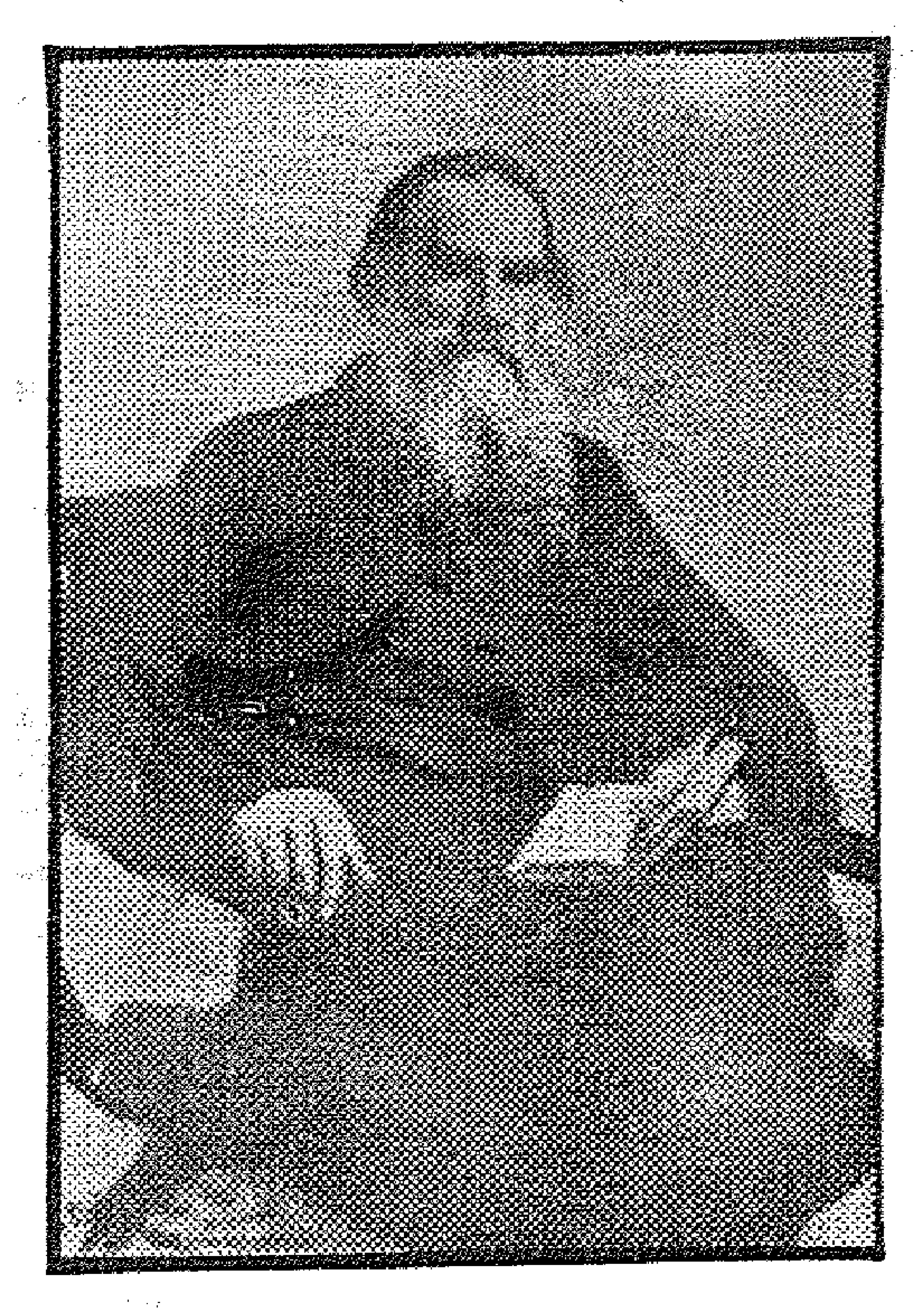


بوشكين



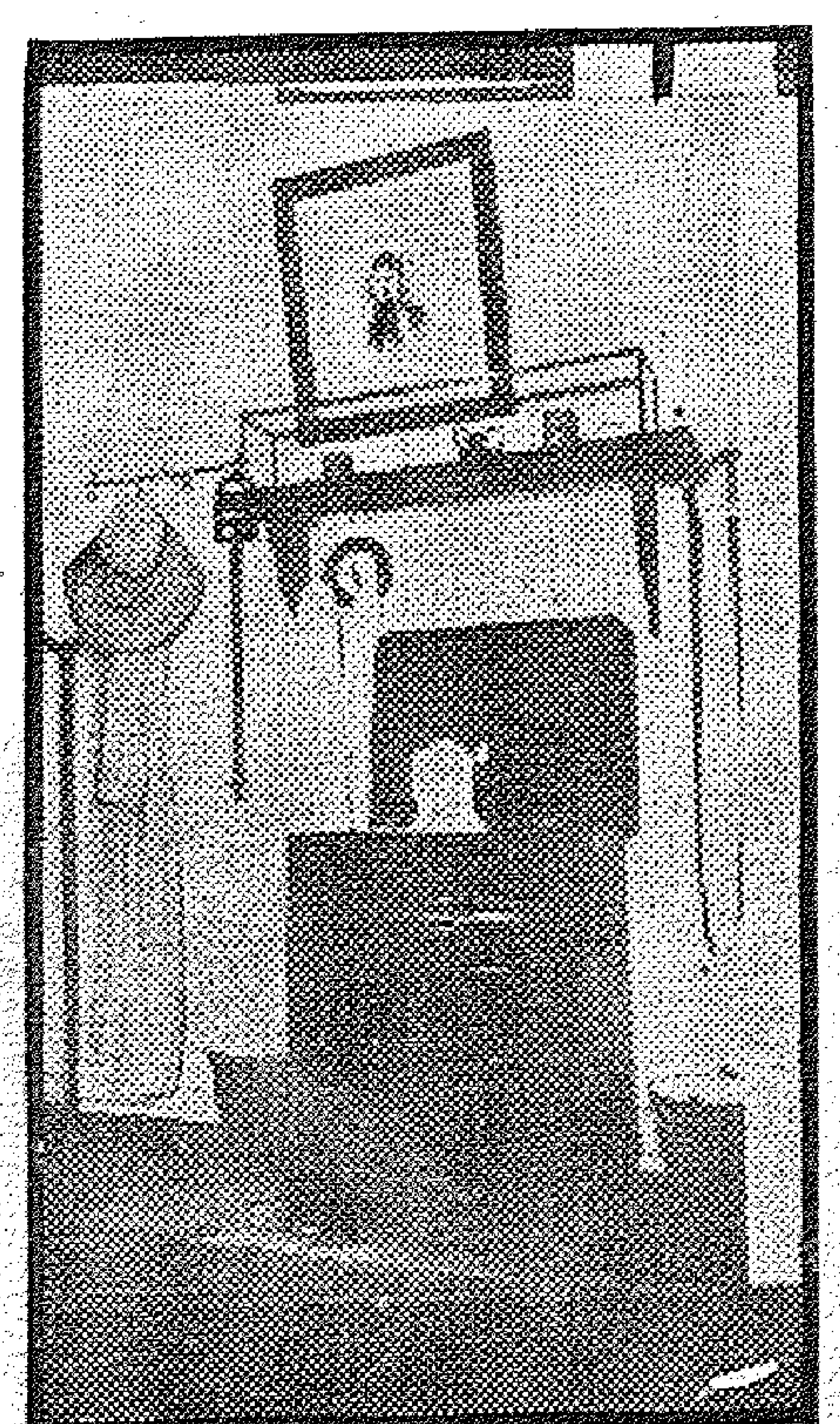
جوجول





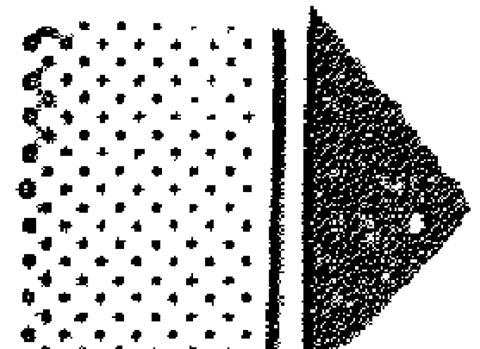


(الى اليمـــين) فى بيت
تولستوى ويوجد دورق يغسل
فيه يديه ومعلق على الحائط
قبعة وعصا .. أما الصـــورة
فلزوجتـــه صوفيا بيرز (والى
اليسار) غرفة نومه





انطون تشيخوف



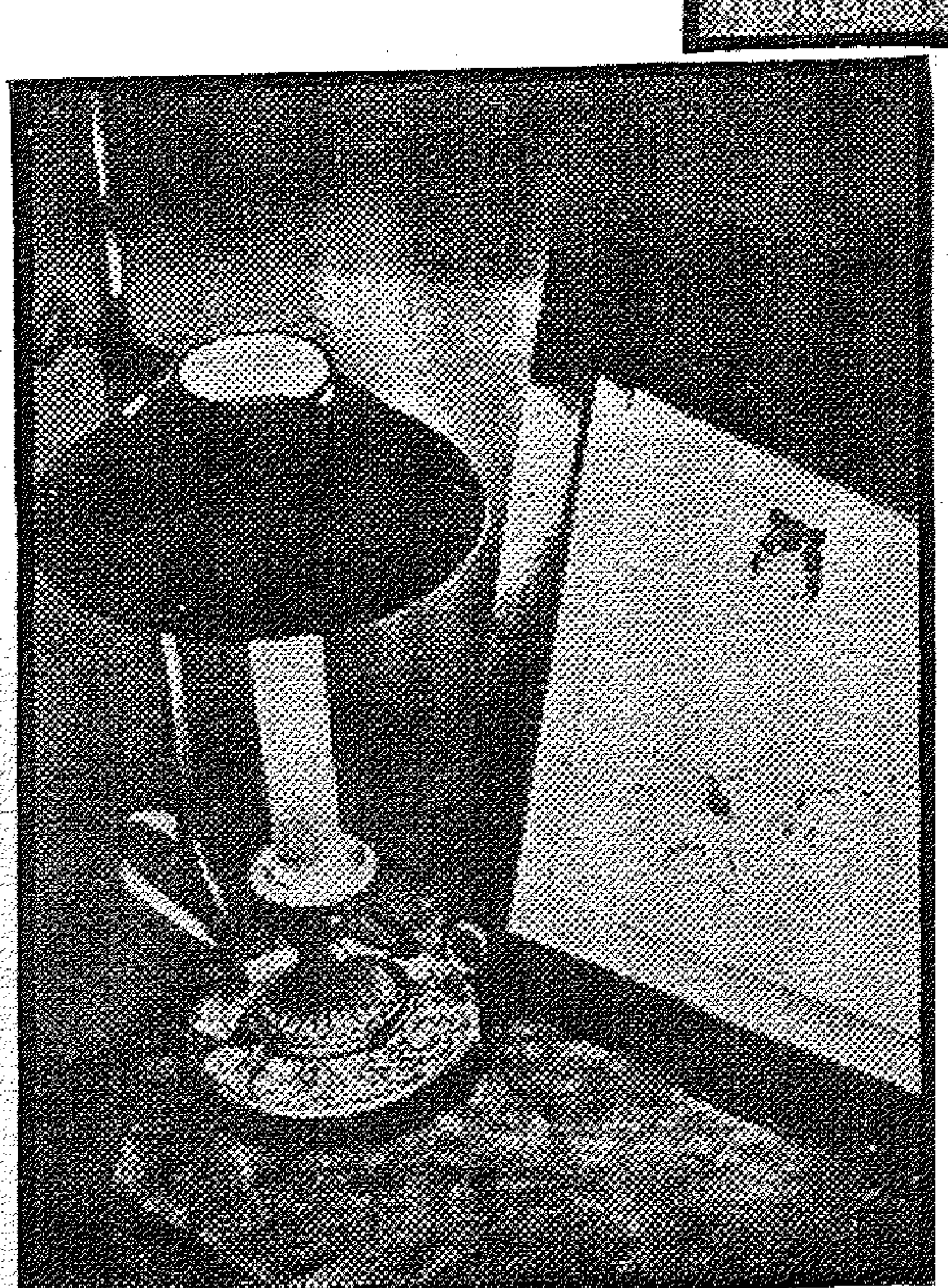


في الوسط يرى تشيخوف ومعه اعضاء مسرح موسكو في سنة ١٨٩٩



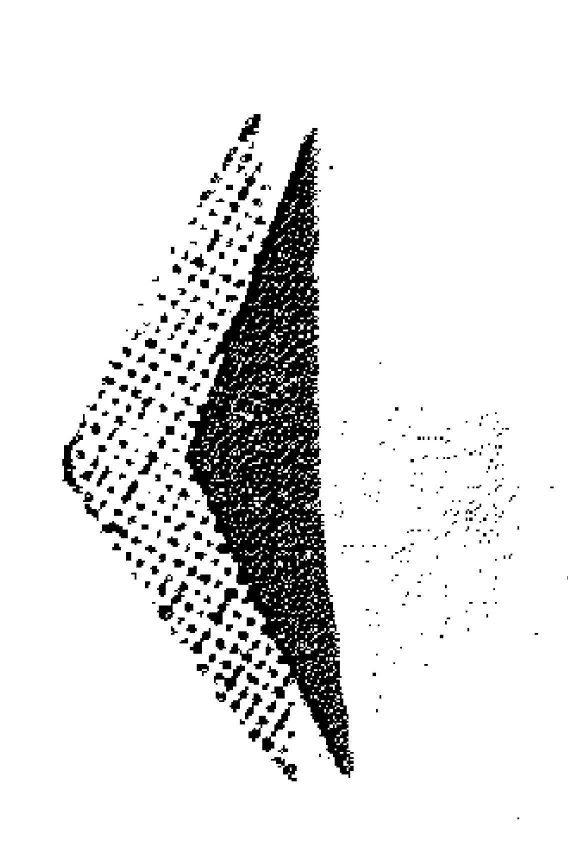
تمثال للشاعر
بوشكين فى مدخل
المدرسة التى التحق
بها سنة ١٨١١

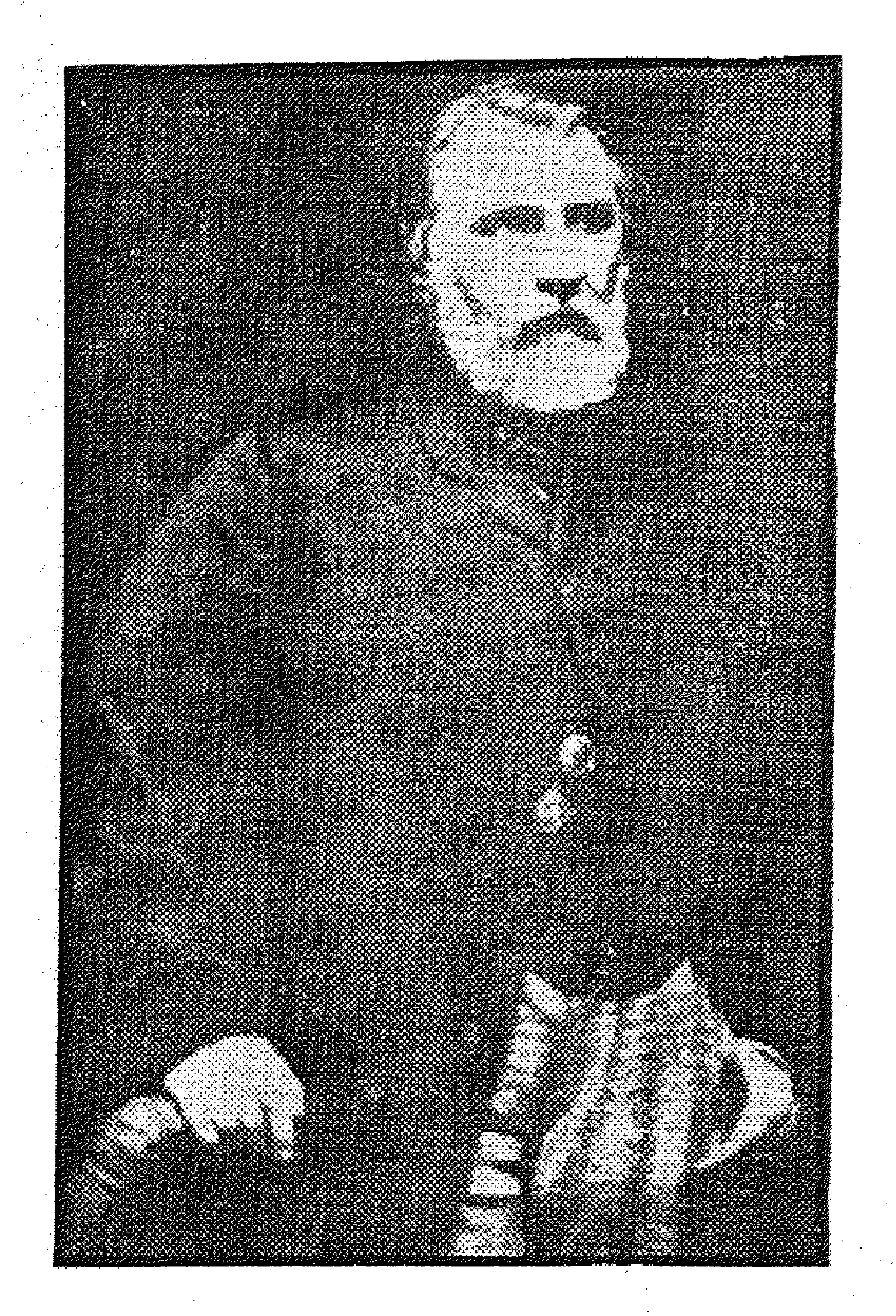




صورة ناتاليا
التى تزوجها بوشكين
فى سنة ١٨٣١ وقد
التقطت هذه الصورة
فى بيت الشاعر
الذى اصبح متحفا
بعد ذلك .

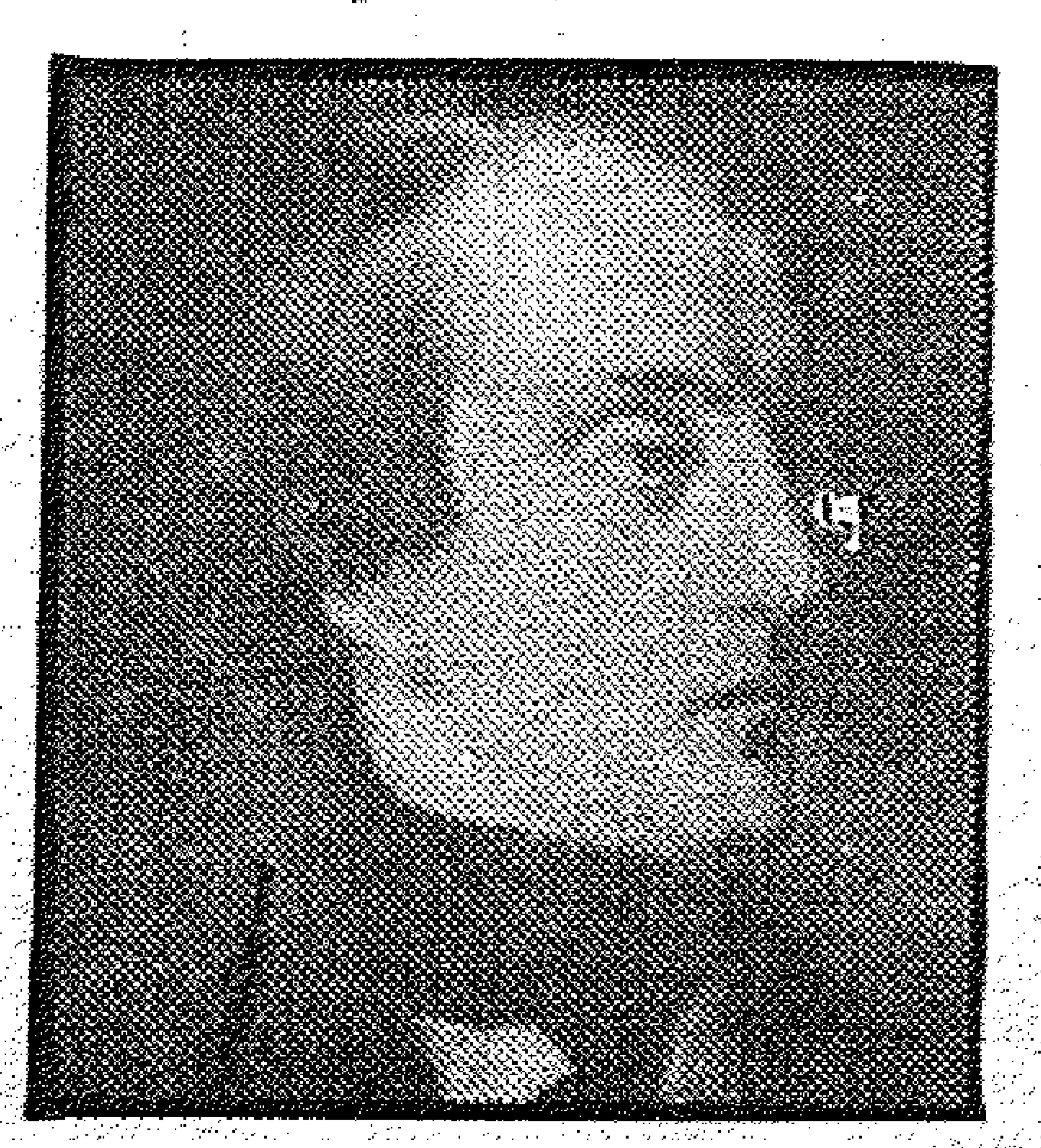
الكاتب الروسى
الكبير تورجنيف

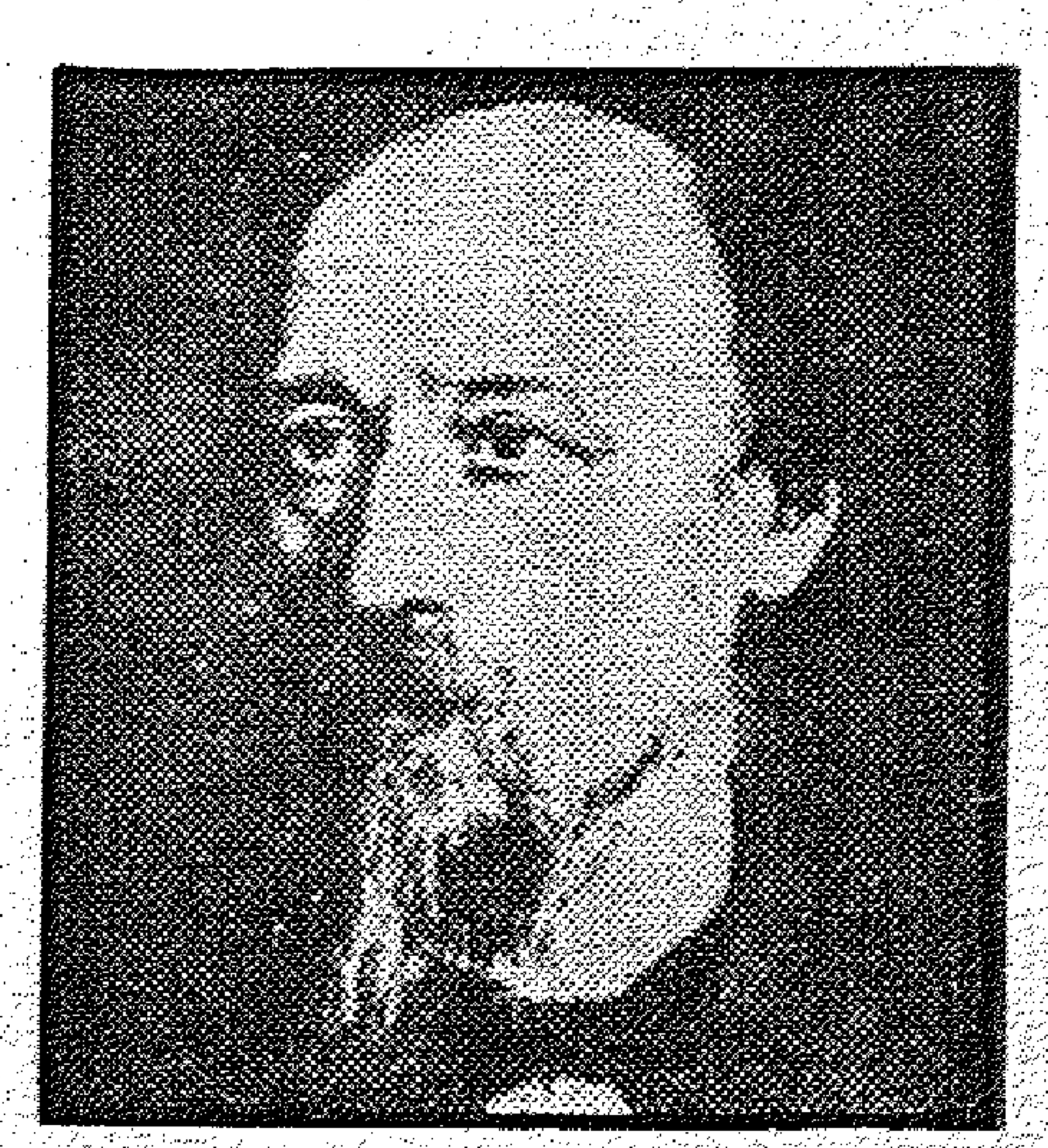




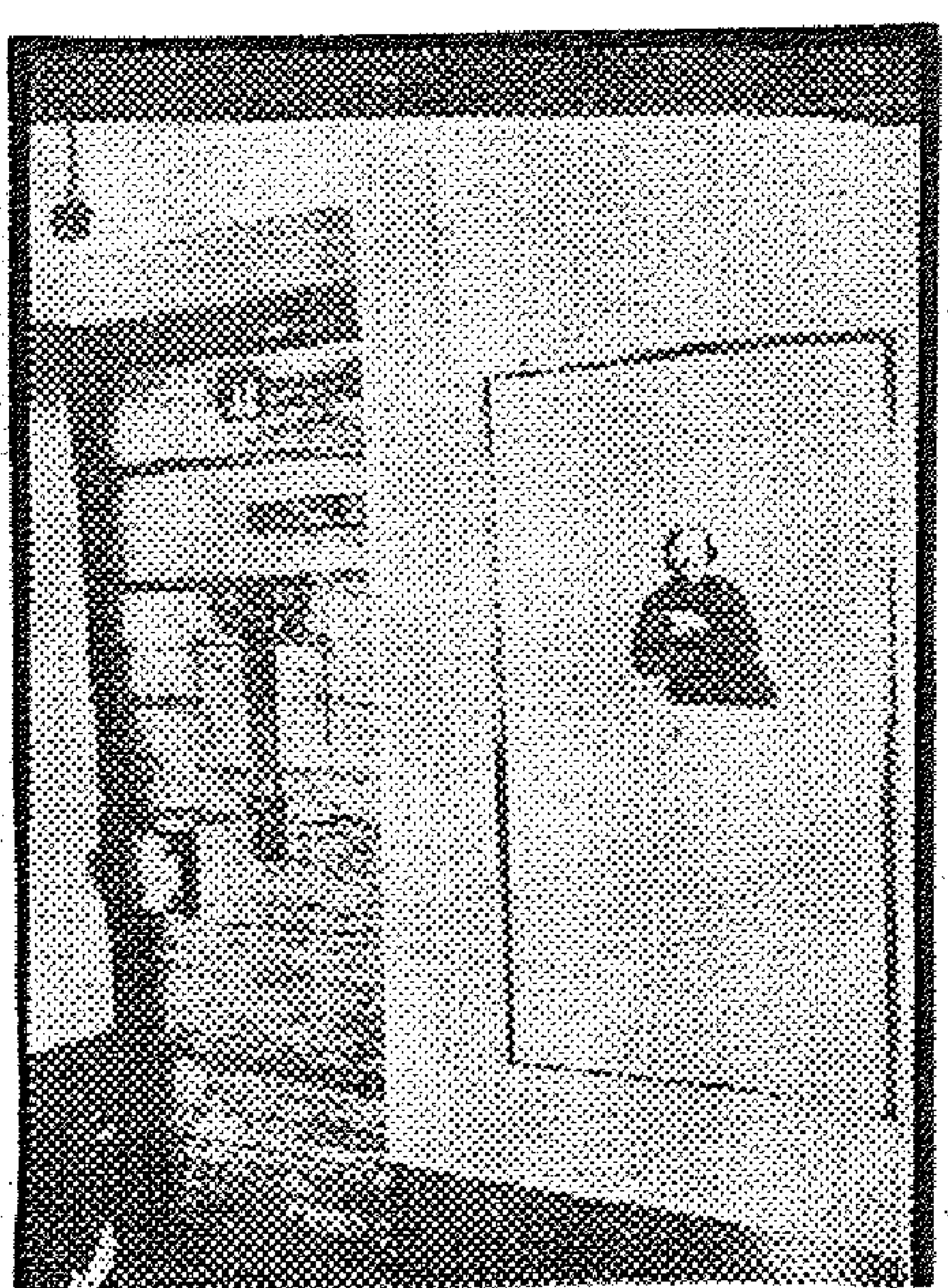
الكاتب بيلينسكى اشهر نقاد
روسيا فى القرن التاسع عشر ..

الكاتب الروسى نيكراسوف
١٨٢١ - ١٨٧٨





الباب الذى يرى فى الصورة هو باب الزنزانة التى سجن فيها مكسيم جوركى فى سنة ١٩٠٥ . وفى الزنزانة رقم ٤٧ القريبة منها سجن ايضا اوليانوف اخو لينين قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه . وعلى الحائط وضع اطار به صورة جوركى .





الكاتب الروسي الكبير جوركى (١٨٦٨ ١٩٣٦)



الاســتاذ ميخائيل جيراســيموف وهوصاحب موهبة فذة فى التاريخ . اذ انه يستطيع ان يكون من فتات الجماجم راسا دقيقا سليما لكثير من الموتى .. وفى الصورة نرى الجماجم التى كونها لعدد من الملوك المغول .. وقد انفرد بهذه الموهبة العظيمة .

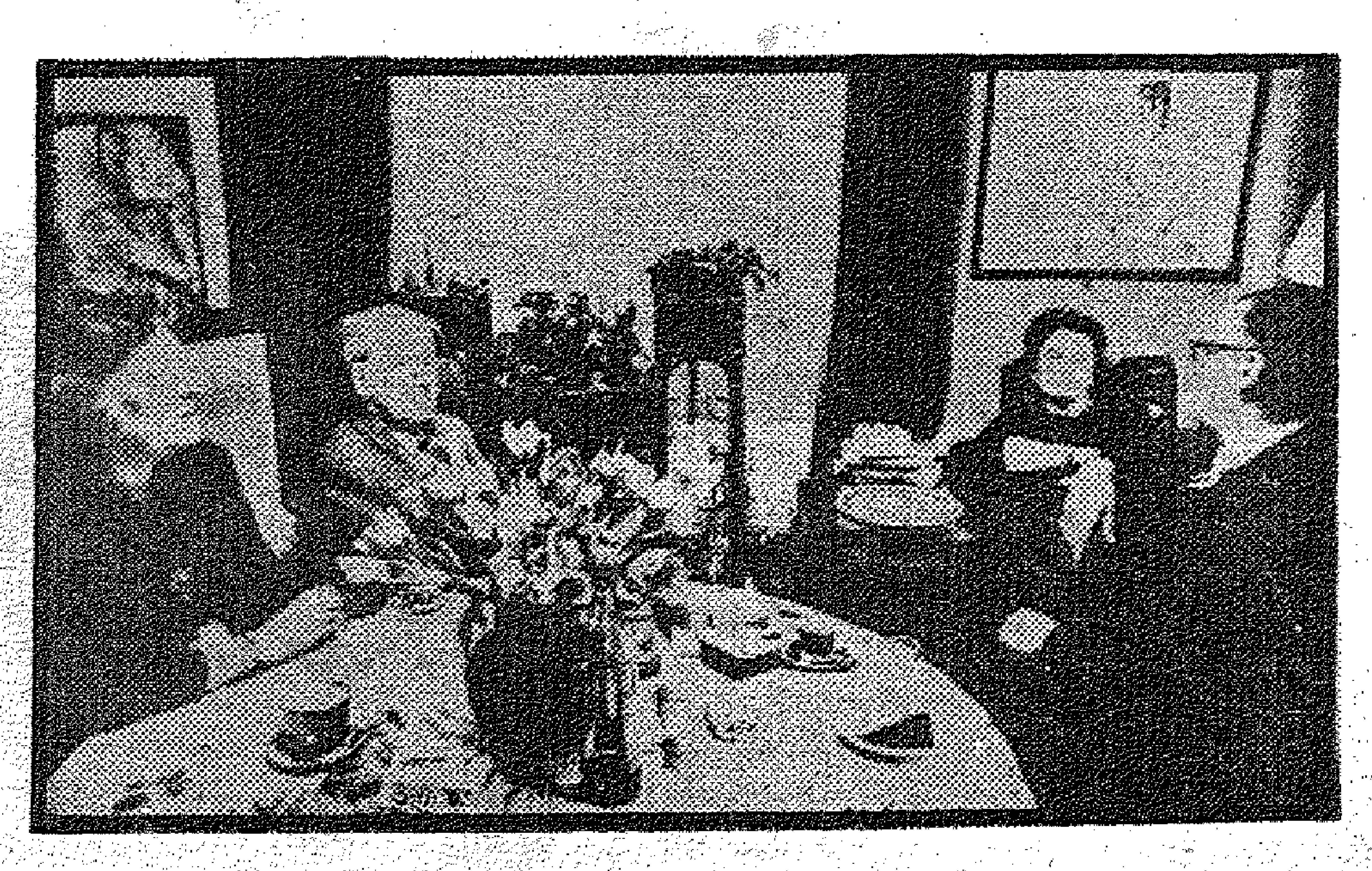


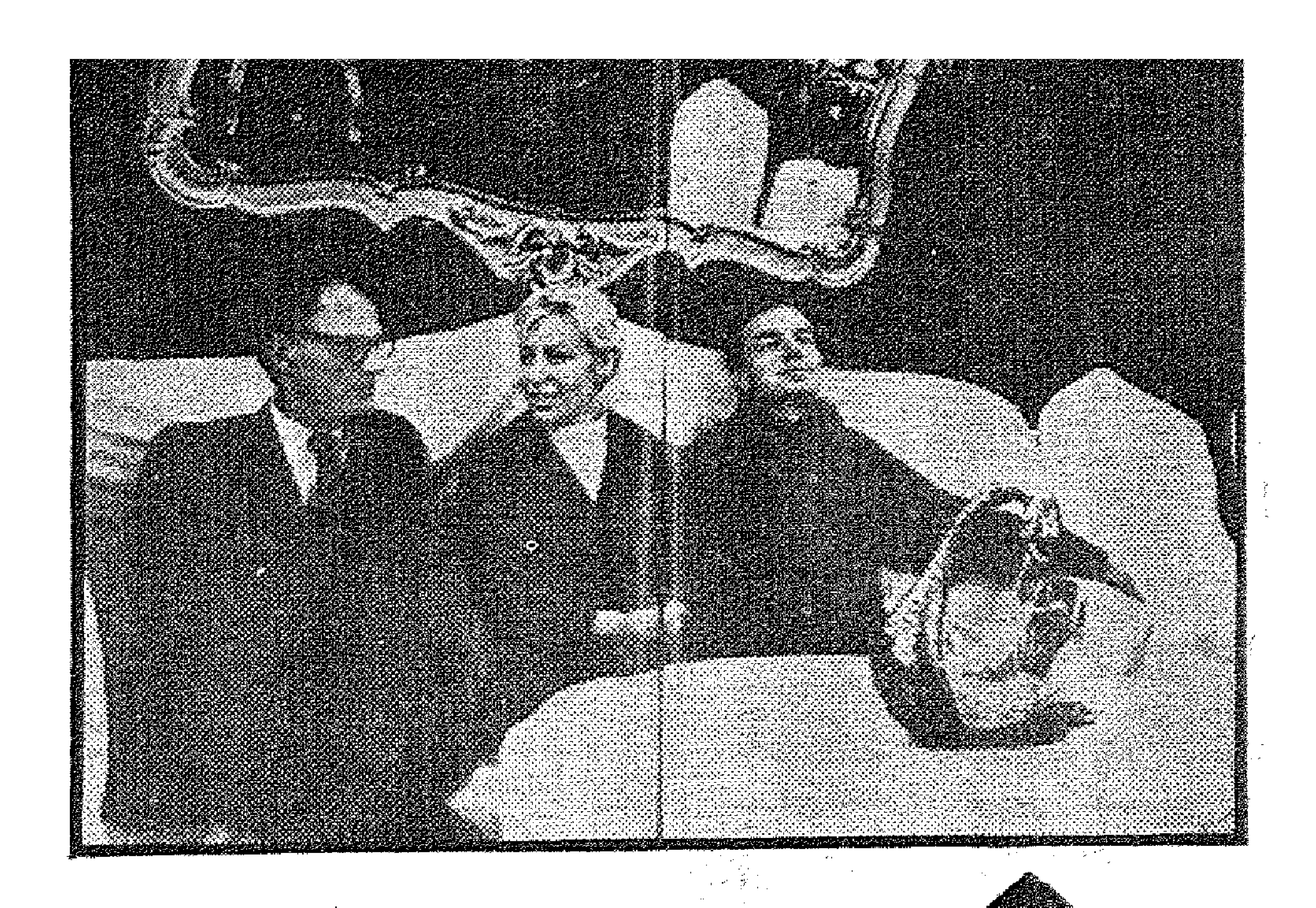




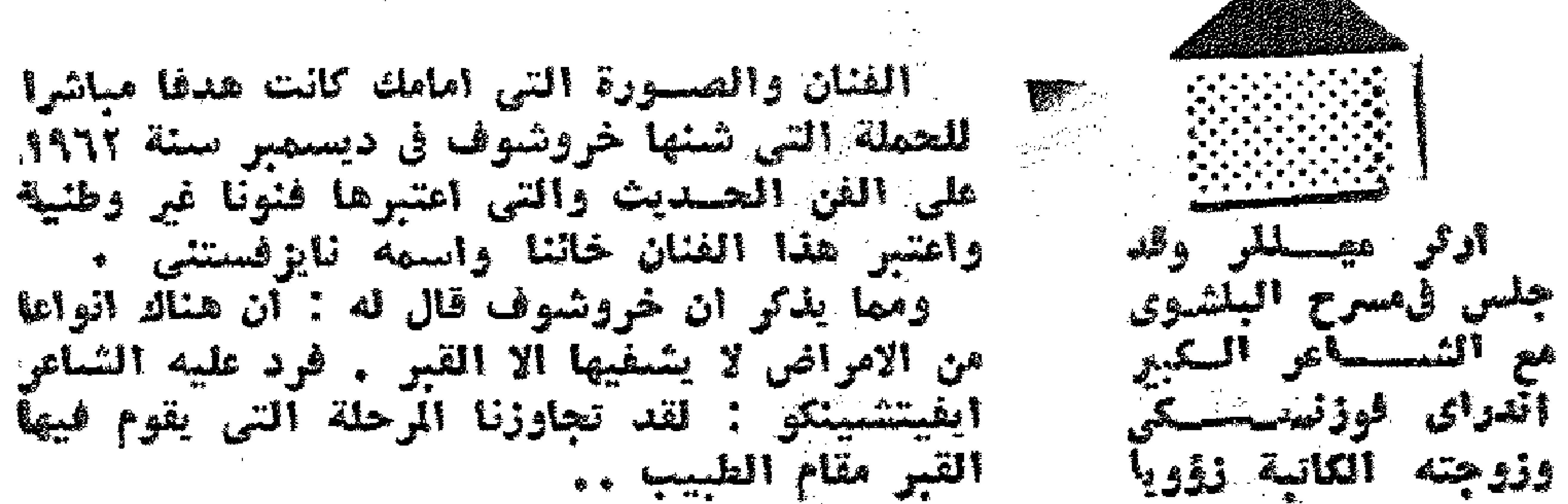
سيرجاى ايزينين الشاعر الغنائى (١٨٩٥ - ١٩٢٥) ويرى الى اليسار مع معشوقته راقصة الباليه الامريكية الذى انتحر من اجلها ايزادورا دانكان .

وفى هذه الصورة يرى الكاتب الروسى ايليا اهرنبورج وزوجته والكاتب الامريكى آرثر ميلر الى اليمين وعلى الحائط تعلقت لوحات لبيكاسو



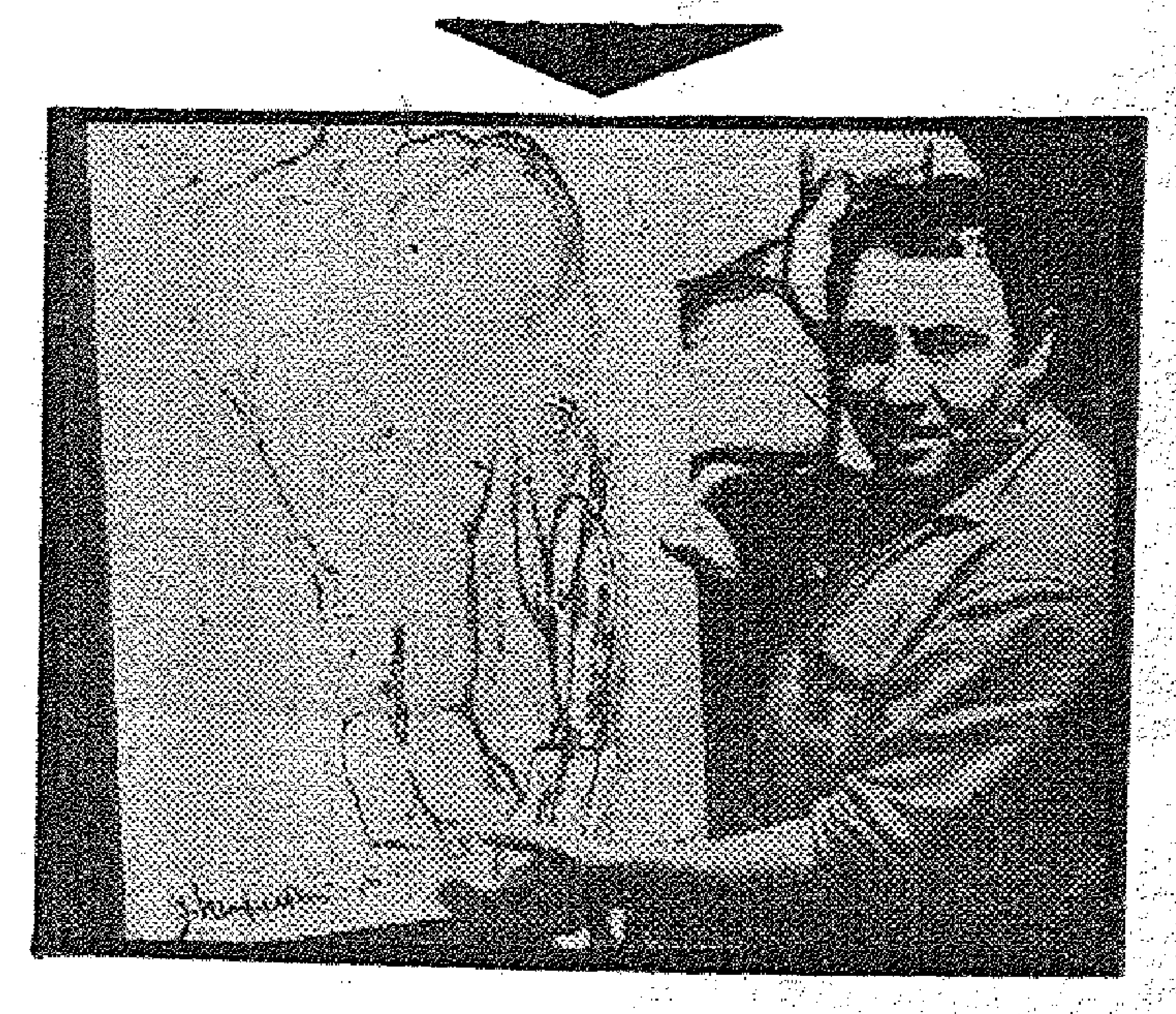


ارثر ميللر وقد جلس فى مسرح البلشوى مع الشاعر الكبير اندراى فوزنسنسكى وزوجته الكاتبة زؤويا



الفنان والصورة التى امامك كانت هدفا مباشرا للحملة التى شنها خروشوف فى ديسمبر سنة ١٩٦٢، على الفن الحديث والتى اعتبرها فنونا غير وطنية واعتبر هذا الفنان خائنا واسمه نايزفستنى .

ومما يذكر ان خروشوف قال له : ان هناك انواعا من الامراض لا يشفيها الا القبر . فرد عليه الشاعر ايفيتشينكو : لقد تجاوزنا المرحلة التى يقوم فيها القبر مقام الطبيب ..



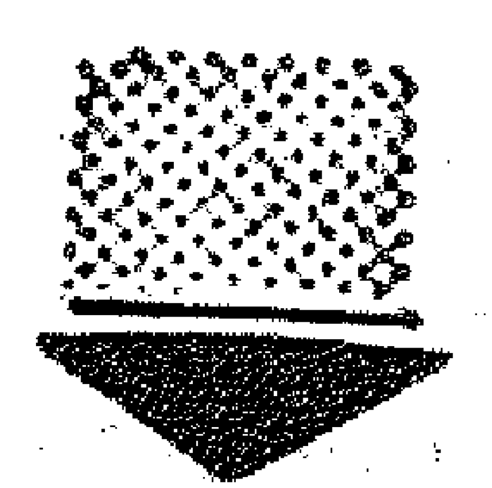


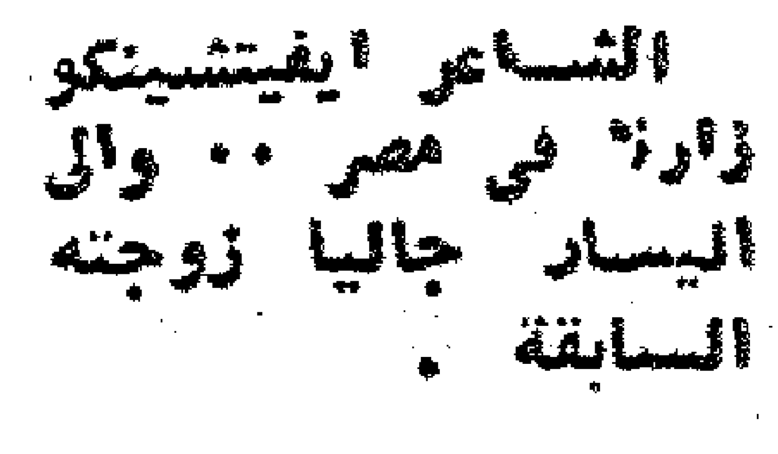
الكاتب الروسى سولوخوف الفائز بجائزة نوبل عن روايته (الدون الهادىء) .



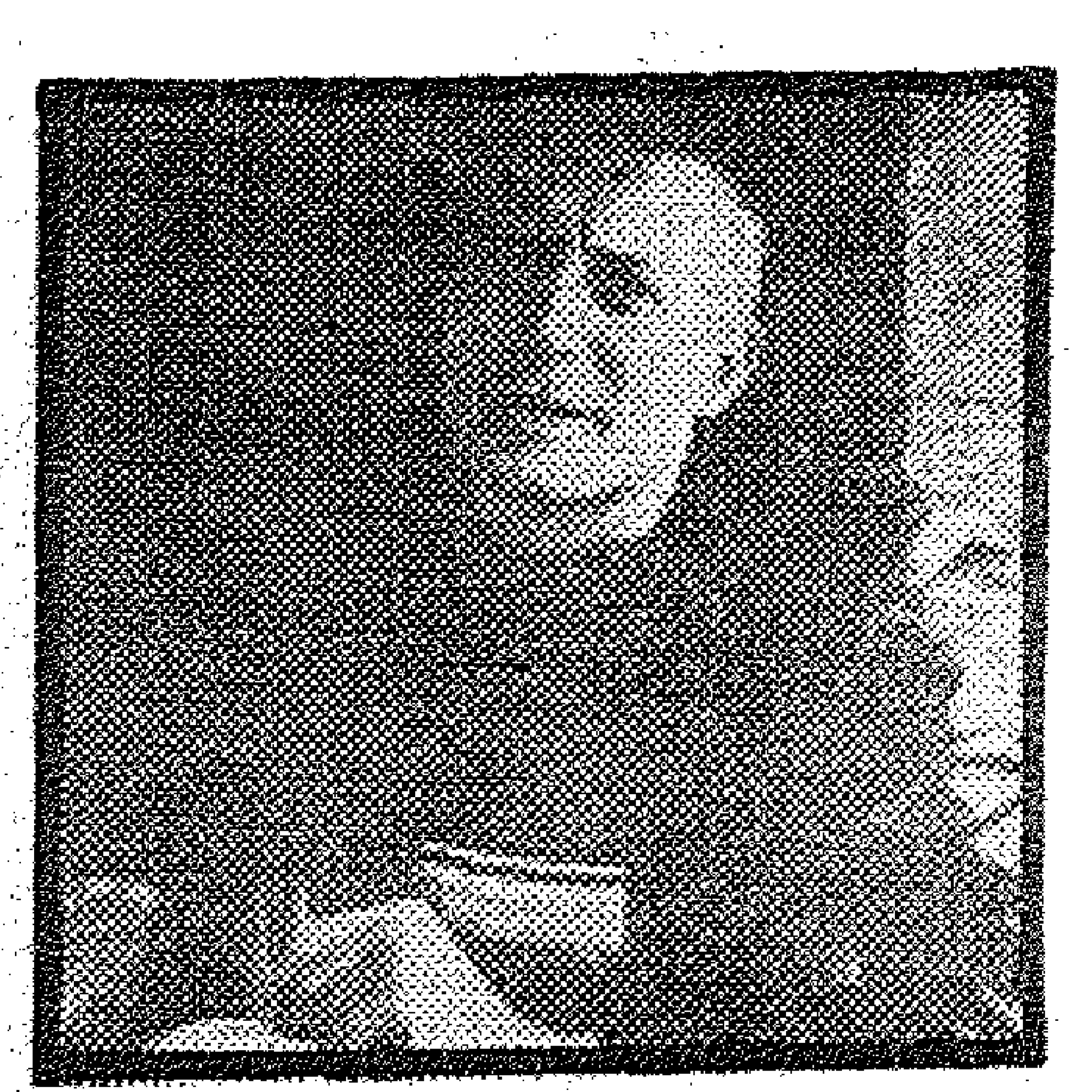
أميرالشعراء الروس المعاصرين الذى استحق لقب خليفة باسترناك انه اشاعة فوزنسينسكى

الشاعر ايفتشينكو زار في مصر .. والى اليسار جاليا زوجته السابقة .

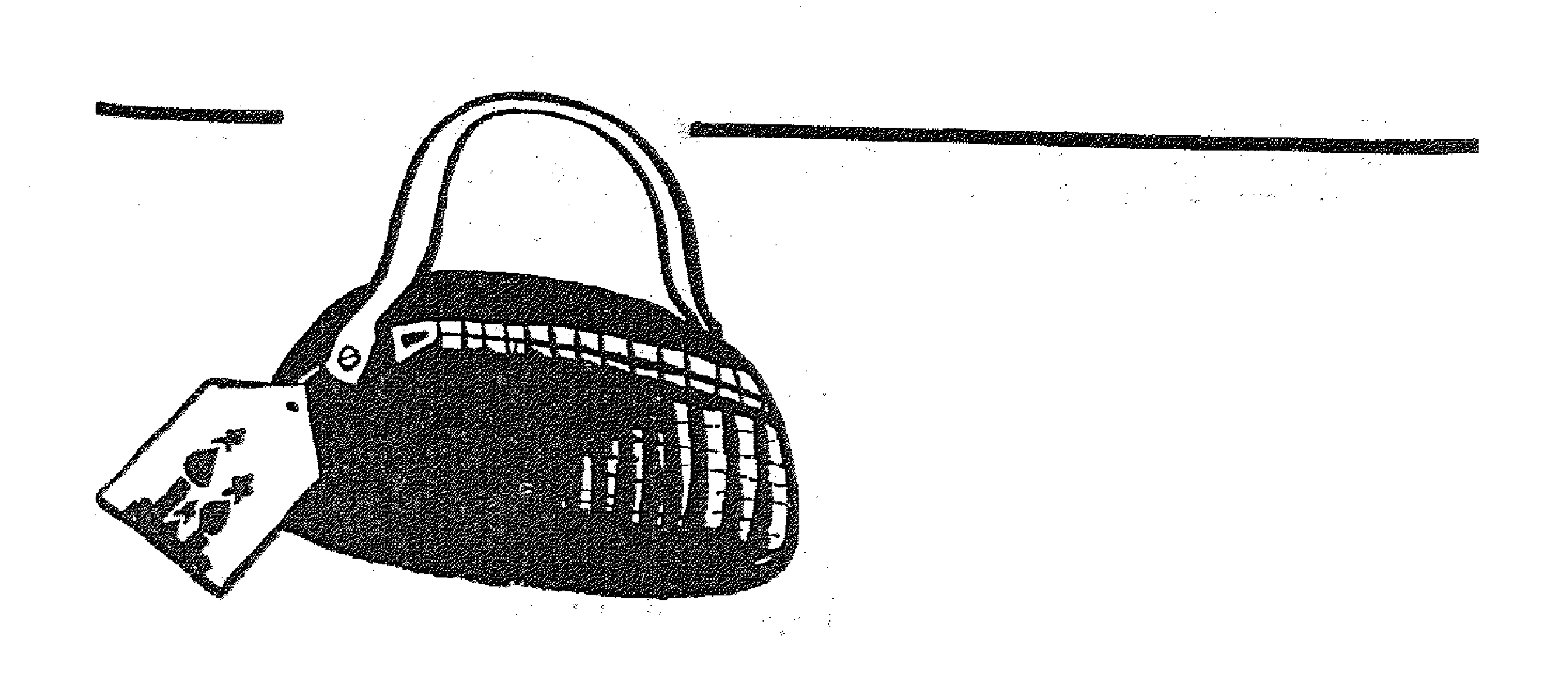








عندما وجهت
الدعوة
لم يحضر
إلاّ الموت!



السفر من موسكو الى لننجراد هو انطلاق ضـد التاريخ فالتاريخ بدأ من لننجراد واتجه الى العواصم الاخرى .. فقـد كانت لننجراد هى العـاصمة السياسية والثقافية . ومنها قامت ثورة وراء ثورة .. حتى جاء لينين وأشعل الثورة الكبرى وتحولت موسكو الى عاصمة للاتحاد السوفيتى ..

ولننجراد اسمها بطرسبورج .. بتروجراد .. وبعد وفاة لينين سنه ١٩٢٤ أخذت اسمه .. وعلقت على صدرها اسمى نياشينه .. وأطلقوا عليها اسم (المدينة البطل) .. لانها استطاعت أن تقف أمام الالمان ٩٠٠ يوم ليس أمامهم بالضبط .. ولكن بينهم وتحتهم .. فقـد حاصروها حتى مات نصف مليـون من ابنائها جوعا .. أسقطوا عليها ١٥٠ ألف قنبلة . وكان من الطبيعى أن تسقط .. ولكنها قاومت .. وكان القائد الالمانى يعلم انها ساقطة لا محالة ولذلك طبع بطـاقات الدعوة لحفلة الانتصـار .. ولم يبق الا ان تكتب اسماء السادة المدعوين .. وبقيت البطـاقات فى متحف المدينة التى لم تستسلم .

ومن اجمل مافى هذه الرحلة الى لننجراد السفر بالقطار .. ربما كان هذا مزاجا شخصيا .. فأنا أحب القطار وافضله على الطائرة والباخرة والسيارة .. فالقطار شـكله مهيب .. ورأسه مرفوع

وصدره شامخ .. ومنظر القطار وهو جالس على الخطين الحديديين يغريني بالحسد .. فأنا أحسد القطار الذى له هـدف واضح ، طريق مرسوم .. معروف .. وفى داخله نار مشتعلة .. ودخـان متصاعد .. والناس تجرى اليه ومنه وهو هادىء راسخ فى مكانه .. كأنه يفكر .. ولكنه فى نفس الوقت على يقين من كل ماسوف يفعله بعد ذلك .. فالقطار هو المفكر .. والشريط الحـديدى هو الخطة المرسومة المدروسة .. والاثنان يعنيان : النظرية والتطبيق .. ورائع منظر الناس وهم يهتمون .. أو وهم مهمومون .. هذا يجرى .. وهذا يسير .. وهذا يودع .. وذاك يحمل حقائبه .. كأنها رحلة الحياة والموت .. أو كأنها الحياة والموت .. فالحيـاة والموت يسويان بين الناس .. فكل الناس أحياء وكلهم سـوف يموتون .. وكل واحد مهما كانت الدرجة التى يجلس فيها سوف ينزل فى محطـة .. والذى يركب الدرجة الاولى والثانيـة .. والكمسارى والمفتش والسائق .. كلهم ينطلقون بسرعة واحدة ..

والقطار قريب من الارض يلمسها ويزحف عليها ويهرب منها .. ويظل ملتصقا بها .. وصفيره الناعم الهزيل المنكمش من شـدة البرد .. والاشجار من حولنا قد تغطت بالجليد الابيض .. نائمة .. أو كأنها لاتريد أن تصحو .. كل شىء أبيض .. صـحارى بيضاء .. ومن الغريب ان تجد اطفالا او رجالا يمشـون فى الارض البيضاء .. كأنهم أيضا يعرفون الطريق .. لابد أنهم يعرفون .. والعجلات تحولت الى عجلة واحدة تتمسح بالقضبان الحديدية .. فلا ضوضاء ولا ارتجاج ولا اهتزاز .. وانما استمرار دافىء فى جو بارد .. والرؤية غير واضحة لنا .. ولكن للقطار : كل شىء واضح مرسوم معروف .. وكانت الدنيا ليلا .. والغرف دافئة .. وكل واحد قد آوى الى سريره .. لايعرف الا شيئا واحدا : كيف ينام .. هل يخلع ملابسه .. أو لا يخلعها .. انا شـخصيا نمت بملابسى كاملة .. اننى خفت من البرد .. ولاحظت أن بعض الـروس قد خلعوا ملابسهم تماما .. وناموا فى الدفء . وهذا طبيعى ولكنى

خفت، فدرجةالحرارة خارج القطار تحت الصفر بعشرين درجة .. ومن المستحيل أن تتسرب الى القطار ..ورغم ذلك فقد تمددت بملابسى كاملة .. ولاحظت أن فى العربة سيدات .. ولاحظت عن قرب أن هناك شيئا من الحرج فى عيونهن او تصرفاتهن ..

وسألت ما الذى تفعله فتاة روسية فى قطـــار ليلى اذا كانت مسافرة وحدها !

وكان الجواب : ما الذى يفعله الرجل ؟

وكنت اريد أن اعرف شيئا أوضح .. وعرفت أن الفتاة تستطيع أن تدخل فى كابينة مع اى رجل وتنام هو فى سريره وهى فى سريرها .. ولا يدور بينهما الا كلام .. أي كلام . وبديهى أن يراعى الرجل أبسط آداب اللياقة كأن يخرج وينظر من النـــافذة الى لاشىء ويشعل سيجارة حتى تخلع الفتاة ملابسها وتتمدد وتنام ويفعـل هو نفس الشىء وينام .. وليس من الضرورى أن يقول لها : تصبحى على خير .. لان الخير فى أن يسكت ويكون فى حاله .

وعرفت أيضا أن بعض الفتيات يضقن بمشاركة الرجل فى غرفة واحدة .. ويذهبن الى الكمسارية ويطلبن منها النـــوم فى غرفة مستقلة . لماذا ؟.. مسألة مزاج .. ثم من الذى يتحمل شـخير رجل لا يعرفه طول الليل ؟! سبب وجيه ..

انتهزت فرصة المناقشة حول ما يجب أن تفعله الفتاة المسافرة وحدها .. وما لا يجب .. وطلبت من الكمسارية : وحياة والدك .. نفسى اشرب كوبا من الشاى .. صحيح أن الليل قد انتصف .. والقطار حار جدا ، ولكنى أخاف من البرد ؟

وكأننى لم أفتح فمى ولا قلت شيئا .. فقد قالت الكمسارية : هذا غير ممكن الان .. لان الشاى فى الصباح فقط ..

وتأملت الكمسارية من جديد .. طبعا شـــقراء .. وملامحها جميلة .. عيناها اجمل مافيها .. وصوتها ايضا وان كنت لا أعرف ما الذى تقوله .. والارهاق واضح على وجهها .. ولو كنت فى مكانها لقلت نفس الشيء .. وترددت فيما بينى وبين نفسى وقلت : لو كنت مكانها لنظرت باشفاق الى هذا الرجل الغلبان الميت فى جلده من شدة البرد رغم أن الناس يقفون بالقمصان من شـــدة الحر .. ولسألت نفسى : أليس هذا شيئا غريبا . انهم فى روسيا يعلموننـــا ان الجسم الانسانى قادر على التكيف .. فكيف أن جسم هـــذا الرجل لا يشعر الا بدرجة الحرارة الموجودة فى خارج القطار .. وكأنه راكب على السلم وليس جالســـا على سرير فى غرفة مكيفة الهواء .. وقد ارتدى ملابسه كاملة .. ان هذا الرجل ســـلالة بشرية غريبة .. ولابد أن أسأله من أى البلاد هو ؟

ولكن لم تقـــل الكمسارية الشقراء شـــيئا من ذلك .. وانما رفضت طلبى بسرعة .. ورأيت فى عيون الناس تأييدا تماما لها . لقد أجرت الكمسارية استفتاء شعبيا موضوعه : هل اصنع له كوبا من الشاى ؟.. وكان الرد سريعا (لامحا) فى وجوه الجميع : دعيه ينفلق ..

وجاء النوم وانقذ الجميع ..

وعلى رصيف مدينة لننجراد وجدنا المترجمة الجديدة .. انهـــا قد اعتذرت لنا فى رقة عن تأخر القطـــار بعض الوقت .. ولكننا اعتذرنا لها فى نفس الوقت عن أن القطار قد لطعها فى المحطة اكثر من ســـاعة .. هى اعتذرت لنا بالنيـــابة عن الحكومة ونحن اعتذرنا لها بالنيابة عن الذوق الانسانى كله .. وعادت البهجة الى وجهها . ان هذه المترجمة تتكلم الانجليزية بطلاقة (على فكرة فى الاتحـــاد السوفيتى اكثر من ٥٠ الف مدرس للغـــة الانجليزية .. والروس ينطقون الانجليزية بلهجة امريكية مائة فى المائة .. ومن الممكن أن

نتساءل نحن جميعا كم عدد الذين يدرسون لنا اللغة العبرية فى مصر وفى البلاد العربية ؟ وكم عدد الذين يعرفون اللغة العبرية ؟ اننا لم نعرف بعد كيف نعرف عدونا ؟

وهذه السيدة المترجمة تترجم الادب الاسبانى الى الروسية وتترجم من الروسى الى الاسبانية أيضا ..

اما الفندق الذى انتقلت اليه فهو قديم عتيق .. كانه بيت لاحد اثرياء ماقبل الثورة .. فى الفندق عدد كثير من الامريكان ..واحد أمريكى همس فى اذنى : من أين ؟ قلت له : من مصر .. قال : الاسعار هنا غالية .. كيف تواجه هذا الموقف .. قلت : انا ضيف . فقال : انت أحسن حظا !

ومن أول لحظة تحس أن فى المدينة عددا كبيرا من السياح الاجانب .. نحن على الحافة الحقيقية لاوربا .. على مدى دقائق من فنلندا . وساعات من السويد والنرويج وانجلترا وفرنسا والمانيا .. وكل أبناء هذه الشعوب موجودون هنا فى لننجراد .. المدينة جميلة .. واسعة .. هادئة .. كأنها مرسومة على الارض .. هدمت وبنيت من جديد .. الشوارع واسعة مستقيمة .. وفى أعلى الشوارع أرقام ٤٠ ، و ٤٥ و ٥٠ .. وهذهالارقام تقول للسائق لا تزد عن هذه السرعة من الكيلو مترات .. اما مصابيح الشوارع فتضاء الكترونيا . اذا جاء الظلام .. او الضباب .. أو نزل الجليد .. فانها تضاء من تلقاء نفسها ..

أول مايلفت نظرك أن هذه المدينة مقامة على عدد كبير من الجزر والانهار والقنوات .. ففيها ٣٦٠ جسرا (ارقام اخرى : ١٨ مسرحا و٥٠ متحفا و ٢٦٠٠ مكتبة) ..

ومن الممكن أن تجد اناسا يتكلمون لغات اخرى غير الروسية .. وتجد أيضا معالم دولة غربية .. فالى جوار الفندق يوجد مطعم فخم .. ولكنه شعبى ايضا .. فكل ما هو شعبى يجب أن يكون

فخما .. فليس هناك أحسن ولا اعز من الشـــعب .. تقدم به مضـــيفات كل واحدة لها زى خاص .. ولهـــا عدد من المنـــاضد تخدمها .. وتجد اسم المضيفة على المنضدة وعلى هذه الورقة ؟ المضيفة التى تقوم بخدمتك اسمها فلانة الفلانية .. ومع ذلك فانت حر فى دفع البقشيش .. ومن الممكن ان تطلب لحم الغزال .. لابد انه ستطلبه .. ولكن بعد ذلك لن تجـــد له ميزة .. ان الغزال لا يعجبك الا اذا أكلته فى احدى امارات الخليج مشويا ومتربعا على عرش من الارز الايرانى واللوز والبندق والجوز .. الخ .

وفى داخل الفندق تجد الكثير ممن يتكلمون لغات اجنبية . فهذه المدينة عالمية .. أو اوربية غربية .. وان كانت من بيوتها وغرفها وشوارعها وبلكوناتها وانهارها خرجت الثورة على التبعيةالى العرب فقد جاء لينين الى لننجراد من سويسرا .. ودخـــل على عربة مصفحة .. العربة ماتزال فى مكانها ولهـــذه العربة نماذج فى كل المتاحف السوفيتية وفى مدينة لننجراد تسلل الثوار الى البارجة (اورورا) .. البارجة ماتزال فى مكانها .. والبارجة هى التى اطلقت اول قذيفة اعلانا بقيام الثورة .. ومن راديو البارجة سمع العالم كله سقوط الحكومة ونجاح الثورة البلشفية ..

وفى لننجراد عاش ومات الشاعر بوشكين .. وبيته متحف .. وامام تمثاله تتكدس الورود واغصان الشـــجر .. فكل مواطن روسى يقطف زهرة او يقطع غصنا ويضعه عند قدمى الشاعر بقصد أن يقول له بشكل عملى : السلام عليكم .

والدهشة لاتنتهى : كيف استطاعت هذه المدينة التى كانت خرابا يبابا فى سنة ١٩٤٥ ان تكون بهذا الجمال وهذا النظام والنظافة .. كيف ؟ .. لا شىء الا بالعمـــل المنظم والا بالايمان بالحياة وضرورة الانتصار على الياس وعلى الموت .. ويبدو ان الايمان بالحياة اهم صفات الروس .. ففى رواية (عنبر السرطان) لاديب روســـيا سولجفيتش الذى فاز أخيرا بجائزة نوبل فى الادب : نجد المريض

.مى [illegible] امل فى شفاته يقول : ولا يهمك .. سوف تكون الحيـــاة احسن ... ممكن ..

وفى قصة لتولستوى عن مريض آخر بنفس المرض .. وهو يعلم انه لا امل فى حياته يقول بالحرف الواحد : من قال انه لا امل .. سوف يكون هنالك امل .. فواحد على الالف من الامل هـــو ايضا أمل ..

ومن أهم معالم مدينة لننجراد متحفها الـــكبير الذى يسمونه ـ متحف المتاحف ـ ففى المتحف لوحات وتماثيل من جميع انحاء العالم ومن كل العصور .. ويضم عددا من القصور .. وقد انشاته الامبراطورة كاترين الثانية لنفسها فى القرن الثامن عشر .. فقـد اشترت مئات اللوحات وقررت أن تضع هذه اللوحات وحدها .. أو تكون وحدها مع هذه اللوحات .. ولذلك فهى التى اطلقت عليه اسم « ارميتاج » أى الدير .. ولكن الدير كبر واتسع حتى اصبح اكبر متحف فى العالم .. او من اكبر متاحف الدنيا .. ومن أفخمها أيضا ..

وذهبنا مع مترجمة جديدة . وسرنا وراءها . او على الاصح جرينا وراءها فكانت تدخل القاعة التى تدوخ اى فنـــان وتمر كالسحابة بسرعة .. وتساءلنا : اننا لانكاد ننظر الى اللوحة بل الى القاعة ، حتى تكون المترجمة قد تزحلقت على الارض اللامعة ، الى قاعة اخرى وعصر آخر .

ولكن عرفنا بعد ذلك أن المترجمة لو وقفت امام كل لوحة نصف دقيقة ولمدة سبع ساعات يوميا لظلت كذلك تسع سنوات لايتخللها يوم واحد أجازة .. ففى المتحف اكثر من مليونين ونصف مليون لوحة وتمثال ..

وعلى المدخل توجد بعد نصائح الامبراطورة لصديقتها : اخلعى قبعتك .. لاتشربى كثيرا حتى لاتحطمى شـــيئا .. ابتسمى فان غضبك يفسد جمال المكان ..

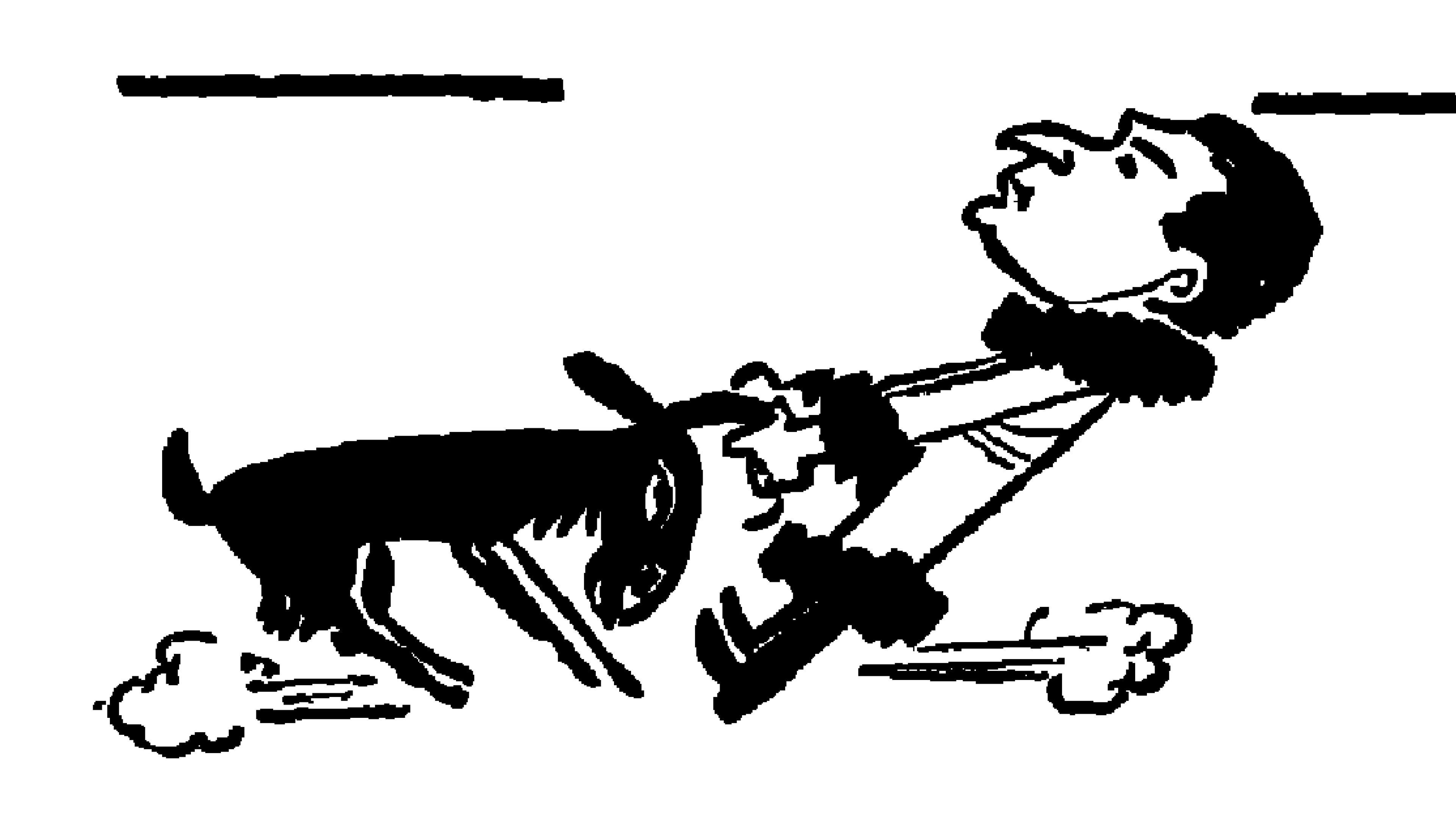
ولابد أن نعود بعد هذه الرحلة الثقيلة فى الزمان والمكان الى الفندق للراحة .. ولكن الراحة ليس لهـــا معنى .. فلا أرجلنا ارهقت ولا أجسامنا .. ولكن فقط لكى نخلع الحذاء الســـاخن والملابس الثقيلة .. ونرتدى ملابس اخف وحذاء عاديا .. ولاافعل اى شيء بعد ذلك سوى أن ابقى فى الفنـــدق .. أنتقل من مطعم الى كافتيريا .. الى محل للبيع بالعملات الصعبة .. المحلات مليئة بالسجائر الامريكية .. الفراء الروسى قليل .. انهم يصـــدرونه للخارج .. الكافيار نادر بالعملة الصعبة .. انهم يصدرونه أيضا .. المرجان والعنبر قليل .. انهم يصدرونه أيضا .. أو اقبل عليه الناس فلم يبق منه الا القليل .. لم اتحقق من ذلك ..

وفى احدى الليالى ذهبنا الى مسرح الباليه ـ شيء آخر هذا الذى يسمونه الباليه .. ان فى روســـيا أعظم فرق الباليه .. احسن راقصات وراقصين .. ولذلك عندما رأيت فرقة كييف فى القاهرة احسست اننى اتفرج على فرقة البحيرة للفنون الشعبية ـ ففرقة كييف لا يمكن مقارنتها بفرق موسكو ولننجراد .. وفى كل مرة كنت اسحب يدى عن التصفيق لفرقة باليه كييف .. لولا اننى تذكرت جملة لاوسكار وايلد يقول فيها : لا تلم العازف على البيانو انه يبذل اقصى ما يستطيع .

فهـــم يبذلون أقصى طاقاتهم لكى يمتعوا النـــاس .. ولذلك يستحقون التصفيق .

واذا انت ابديت اعجابك بما حقق الروس وما يحققونه من اعمال فانهم لا يخفون عنك انهـــم يريدون أن يفعلوا ما هو أحسن .. ويذكرون لك هذه النكتة : ان أحد العلمـــاء اخترع اكسيرا يعيد الحياة الى الناس . وفكر العلماء من الذى يستحق أن يقدموا له هذا الاكسير لكى يعود الى الحياة .. ثم قرروا أن يعطوا هذا الاكسير للزعيم لنين .. وصحا لنين من الموت .. وعنـــدما ذهبوا اليه فى غرفته .. لم يجدوه .. وانما وجدوا ورقة عليهـــا هذه العبارة : قررت أن اعود الى سويسرا لافكر فى ثورة جديدة !

حديث البخاري..
والبخار
والمآذن
والمداخن!



كلما شكونا من البرودة قيل لنا : غدا تسافرون الى الجنوب .. الى طشقند وبخارى وسمرقند . فهناك ستجدون الشمس ، يابختـــكم . والدفء ياسعادتكم والفاكهة ، نحسدكم .

ومع هذه الكلمات لمعـــان فى العين واحمرار فى الوجنتين . ونشعر بالدفء واذا شــكونا من اللغة قيل لنا ستجدون من يعرف العربيـــة ، أو الذين تعلموا فى الازهر ..وستجدون نورالدين وقمرالدين وسيف الدين .. ولابد اننا نعرف ذلك فليس من المعقول طبعا أن يحكم العرب هذه البـــلاد مئـات السنين دون أن ندرى .

ومن المؤكد اننا نعرف ان الامام البخارى (٨٠٩ ـ ٨٦٩) الذى جمع الاحاديث النبوية (٧٣٩٧ حديثا) فى ١٦ عاما قد ولد هنا ومات ايضا .. ونعرف طبعا الفيلسوف الطبيب ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٦) هو احدى هداياهم العظيمة الى الحضـــارة الاسلامية والانسـانية .. ونعـرف ابا بكر الخوارزمى (٩٣٥ ـ ٩٩٣) الذى اشتهر بانه كان يحفظ كل الشعر العربى . ويقال انه ذهب لزيارة الصاحب بن عباد . وجاء الخادم ليقول له : ان سيدى لا يقابل الا من يحفظ عشرة آلاف بيت شعر . فقال الخوارزمى : قل لسيدك من شعر الرجال أو شعر النساء ؟ وذهب الخـــادم يقول لسيده :

فكان رد الصاحب بن عباد والله انه ابو بكر الخـــوارزمي .. دعه يدخل !

ولابد ان يشعر الانسان بالدفء الذى معناه اننى لم اعد وحدى مع تاريخ لا اعرفه . ومع لغة لا ادرى منها الا بعض كلمات الامتنان والترحيب والتوديع .. فقد اقامت هذه البلاد مجدها القديم على حضارتنا . ولا تزال هذه الحضارة باقية بشكل ما : فى الاسماء وفى بعض الكلمات وفى المســـاجد التى لم نتحمس لرؤيتها فعندنا منها مئات الالوف . وكنت اتمنى ـ طبعـــا ـ ان تقع عينى على تلك النسخة النادرة من مصحف عثمان بن عفان الذى نقلوه فى ايام تيمورلنك من مدينة طشقند الى مدينة ســـمرقند . ثم نقله الروس معهم الى مدينة بطرسبورج ـ اسمها لننجراد الآن ـ ١٨٦٩ . وظل المصحف هناك حتى جاءت الثورة الشيوعية فذهب وفد من المسلمين الى لنين . وطلبوا اســـتعادة المصحف . وعاد المصحف الى متحف طشقند . ويقال ان دم عثمان مايزال على هذه النسخة . ويقال ان ورق المصحف لا يتحمل اللمس . ولكن استطاع علماء الكيمياء ان يعيدوا للورق حيويته .. وانه سوف يبقى الوف السنين ..

ومن الطائرة لا شيء يدل على اننا نتجه الى الجنوب .. نحن فوق السحاب وفوق السحاب توجد الشمس الســـوداء التى يصفها رواد الفضاء . والناس حولنا لهم ملامح آســـيوية . ولكن هذا لا يدل على شيء فاكثر الاتحاد السوفيتى يقع فى آســـيا ولكن هذه الملامح لابد لها الاغلبية البارزة فى جمهورية أوزبكستان (١١ مليون نسمة) . واهل هذه الجمهورية يتكلمون عـــدة لغات من بينها الازبكستية .

وبهذه الجمهورية الصغيرة أكثر من مائة قومية .. ولهذه القوميات لغات ولكن هذه القوميات كلها قد ذابت فى صيغة سياسية واحدة : الاشتراكية ويتحدثون الروسية . وعلى المدى الطويل ـ ولا احد هنا يستعجل ذلك ـ سوف تذوب القوميات واللغات . هذا لا شك فيه

فالروس مثل الامريكان مشـــدودون الى المستقبل وهو الحقيقة المؤكدة عند الجميع !

ولابد من بعض الارقام : من بين القوميات الموجودة فى جمهورية اوزبكستان : الازبك والروس والطـاجيك والقوزاق والتتار ـ والفتاة التى ترافقنا من أصل تترى واســمها لاريسا بدر الدينو فا صغيرة الحجم لا تبذل اى جهد فى الحركة . فهى خفيفة لا تضيق بما تحمله من ملابس ولا تشكو من المشى او من التعب او حيرتنا بين ان نقول لا او نعم للطعام والشراب ـ او التركمان وغيرهم .

وهذه الجمهورية تقع على حدود افغانستان . وكثير من الناس يسألوننى ان كنا من باكستان او من افغانستان . ولابد أن يكون سبب ذلك اننا نسرف فى استخدام عبارات : السلام عليكم .. أو كلمات شكرا .. تشكرات .

المدن الرئيسية هنا عبارة عن واحات فى قلب الصحراء الشاسعة التى مساحتها نصف مليون كيلو متر . وتوصف فى الشعر والاغانى بانها لؤلؤة الصحراء .. كل مدينة قد اختارت لنفسها هذا الاسم اى ان هذه المدن جميعا حبات لؤلؤ أخضر قد انفرط على بساط اصفر . هذا البساط الاصفر أصفر حار صيفا (١٥٠ يوما من العام بلا سحاب) وبارد شتاء ..

وفى المحلات تجد الحلاوة الطحينية . وهذا طبيعى فنحن فى بلاد القطن والبذرة والكسب والطحينة . وهنا يوجد ٧٥ نوعا من القطن ويصدرون أربعة ملايين طن سنويا . والقطن هنا يجمعونه بالآلات . وفى هذه البلاد ملايين من اشجار التوت لان لديهم الوف الملايين من ديدان القز . وتصدر ١٩ الف طن من خيوط الحرير . وهى ثالثة دولة فى العالم بعد الصين واليابان .

وهنا توجد احسن انواع الفراء ـ الذى يصدرونه ولذلك لا تجده فى السوق لا بالعملة السهلة ولا بالعملة الصعبة ـ فهنا اغنام الكاركول .. وقد التقطت صورة مع هــذه الاغنام . وأعترف بان هذه الاغنام حاولت ان تهرب ولكننى اكرهتها على ذلك . وعوقبت

على ذلك بخجلى الشديد .. فما معنى هذه الصورة لو نشرتها ؟!
وتكرر شعورى بالخجل مرة اخرى . فقد تذكرت اننى احتفظ
بصورة مع اخت الكلبة لايكا التى عرضها الروس فى جناحهم بالمعرض
الدولى سنة ١٩٥٧ فى مدينة بروكسل بعد ان اطلقوا لايكا فى قمر
حول الارض . فمن الممكن الا تكون اختها او بنت عمها او حتى من
فصيلتها .. ومزقت الصورتين بعد ان ترك هذا الشعور الخجل
العميق فى نفسى . وكلمة « الكاركول » معناها البحيرة السوداء .
فهم عندما ينزعون جلد هذه الاغنام يفرشونه على الارض فى مساحات
شاسعة . هذه المساحات تبدو كالبحيرة السوداء المتموجة .. ولكن
اهل اوزبكستان استطاعوا ان يولدوا اغناما وانواعا كثيرة : بيضاء
وزرقاء وبنية ومنقطة ..

وفى الربيع تصبح الطبيعة هنا وليمة لكل عين . فالفواكه كثيرة
ومن الضرورى ان نستسلم للارقام : يوجد ٦٠٠ نوع من العنب
و ٢٤٠ نوعا من التفاح و ١٤٠ نوعا من الخوخ و ١٤٠ نوعا
من الكريز و ٤٠ نوعا من التين وتوجد هنا شجرة « العناب » التى
كان الفيلسوف ابن سينا ينصح بتناولها للشفاء من اوجاع ضغط
الدم والمعدة . وكان يقول انها تعطى القوة والشباب .. اما الرمان
فقد عرفه الرومان هنا . وكانوا ينصحون به . وكان هرميروس
اول من نبه الناس الى ذلك . ومن بعده ابن سينا .. ولاسباب غير
معروفة قيل انه يفتح الشهية الجنسية .

اما البطيخ فهنا مئات الانواع . . ويقال ان اهل طشقند ـ عاصمة
اوزبكستان ـ كانوا يصدرونه الى بغداد فى علب من الصفيح . وكان
البطيخ غالى الثمن . وفى استطاعة اى انسان ان يشترى جارية
جميلة ببطيخة ـ ليس الآن طبعا ! ـ

انتهت معظم الارقام ..
ويقول مثل شعبى قديم هنا : صحتى ثروتى .. !

اذن فالناس هنا من اغنى اغنياء العالم ، فكلهم فى صحة جيدة .
وان كان اكثرهم يشكو من امراض الكلى .. والسبب هو مياه

نهري : اموردارايا وسيردارايا .. ولكن اى انسان يرتدى الملابس الخفيفة فى هذا البرد ولا يعطس او لا يصاب بزكام ، فهو من وجهة نظرى فى صحة جيدة . والناس القدامى هنا يرتدون الطاقية ، تشبه طواقى أسوان التى يرتديها الروس ، ويلبسون الجلبــــاب ويلفون حوله الحزام . وتحت ذلك سروال يشبه سراويل قبضايات الشام او اولاد بحرى فى الاسكندرية .. والصدر عار رغم البرودة الشديدة .. والنساء يرتدين ملابس مشابهة . وازياؤهن الوطنيةمن الالوان الصارخة ومن الحرير عيبها الوحيد انها جميعا من لون واحد ونقشة واحدة . وكثير من الجيل الجديد يرتدى البدل ، والفتيات يرتدين التايرات والفساتين الاوروبية . اما الشعر فأســـــود . والعيون آسيوية والحاجبان فارسيان او تركيان . والشوارب مفولية .. والوجوه ضاحكة .. او على استعداد لان تضحك .

اذن هذه طشقند . الشوارع واســـعة . العمارات مرتفعة .. والاوناش تعلو وتهبط فى كل مكان . ولم يعد اى اثر لذلك الزلزال الذى هدم المدينة يوم ٢٦ ابريل ســــنة ١٩٦٦ . فقد تعاونت كل الجمهوريات الاخرى على بناء طشقند .. جاء الخشب من لننجراد والمسامير من موسكو والعمال من اوكرانيا . وفى ذلك العام سجلت المراصد ٧٠٠ اهتزاز . ولكن الـ ٧٥ الف اسرةالتى شردت ، وجدت لها بيوتا . وتفطت المساحة التى هدمها الزلزال بالعمارات والمساكن الشعبية (المساحة المهدومة ٢٠ مليون قدم مربع) .

وفى أحد شوارع طشقند يوجد تمثال لاول رائد فضاء : جاجارين هزنى التمثال لاسباب خاصة . فالتمثال يشبه تماما تلك النقوش التى اكتشفها العلماء فى كهوف صحراء التسيلى فى جنوب ليبيا .. وجه جاجارين وراء الخوذة وقوامه القصير . كأنه هو الذى صوروه من ٢٧ الف عام فى جنوب ليبيا وبالالوان ان ملامحه ووقفته تشبه ما جاء على لسان اشعياء فى الكتاب المقدس عندما راى رواد الفضاء لاول مر ةعندما هبطوا من السماء بالقــرب من بغداد ، ومن الوف السنين !

وفى طشقند ، كمعظم المدن والعواصم فى الاتحاد السوفيتى ، يوجد مسرح ودار للاوبرا وفرقة للباليه وفرقة للفنون الشعبية ومتحف للينين . فيه كل شيء عن حياة لنين : طفلا ورجلا ، حيا وميتا ، مكافحا وحاكما .. صورة ليده وخط يده .. صورة لعربته التى دخل بها لننجراد .. صورة لجنازته .. وهذه الصور من الممكن ان تضاء وان تسمع شرحا من خلال جهاز تليفزيونى . وفى المتحف قاعة سينما رائعة .

ومدينة سمرقند قد احتفلوا بمرور ٢٥٠٠ سنة على انشائها . وافتتحوا لهذه المناسبة فندقا ضخما . ومطارا عظيما . وتصادف عندما نزلت فى فندق سمرقند الجديد ، أن كانت هناك مؤتمرات للحزب الشيوعى . وكان معنى ذلك ان يحجز المطعم لاعضاء المؤتمر . اما نحن غير الاعضاء فلنا مكان آخر .. احسن الطعام والشراب والموسيقى لهم . اما نحن فعلينا ان نذهب الى مطعم صغير آخر .. ووجدناه أجمل والطف فنحن احرار فى أن ندخل وان نخرج كما نريد وأن نتكلم أيضا . ومن المناظر الطريفة انهم كانوا يعرضون الحلوى امام الفندق : التورتات والجاتوهات .. هناك تورتة على شكل سفينة القمر السوفيتية لوناخود .. والناس يشترون من أمام الفندق .. فالجو أكثر برودة من أى فريجيدير . والهواء نظيف . ولا داعى لان يدخل أى انسان الفندق ما دام كل الذى يريده هو بعض الحلويات .. لا توجد حلويات خاصة . وانما يوجد طعام قومى اسمه بلوف من الارز واللحم . لم يعجبنى فاللحمة تحتاج الى قضم والارز غارق فى السمن والظلط . أو لعل الذى اسمه ظلط هو نوع من الارز المحمر جدا . ربما .. وهناك نوع من الكباب اسمه الشاسكيك . أما الشوربة فهى مقبولة وكلها من البصل والطماطم وتساعد على النوم ــ شكرا لها على ذلك !

الجو دافىء . وفى ذلك الكفاية . أما المساجد هنا فهى لا تهزنى ولكن هذه المساجد لها قصص . فهناك مساجد لها مآذن منفصلة . بعيدة عن المسجد نفسه . واحدة منها قد مالت ، مثل برج بيزا

الايطالي ، وقومها المهندسون . هناك مسجد له سلالم . والذى يخطيء فى عددها فهو انسان خاطيء .. اى له خطايا . ومن الذى بلا خطايا ! وهناك مسجد عليه عبارات للفيلسوف الاغريقي سقراط وباللغة العربية .. يقول سقراط : الدنيــا فانية ـ عبارة عادية لا تحتاج الى أن ننسبها الى سقراط .

وهناك مسجد دفن فيه تيمور لنك . وقد نصح بالا ينبش احد قبره . ولما نبش الروس قبره سنة ١٩٤١ اشتعلت الحرب الثانية . ولكن اكتشف العلماء ان تيمور لنك فعــلا كان أعرج ، أو كانت له ساق اقصر من الاخرى ـ مثل مارلين مونرو !

وهناك مسجد فى مدينة بخارى كان الناس يلقون فيه بشكاياتهم الى صاحب الضريح . وكان صاحب الضريح يجيب على رسائلهم كتابة . واكتشفوا بعد ذلك أن رجلا آخر هو الذى يفعل ذلك !

اما الرجل الذى ضرب الارض فأخرجت ماء ، فاعتبره الناس من اولياء الله الصالحين . فما أعظم الماء لاناس يعيشون فى الصحراء . واقاموا عليه مسجداً . وأقاموا بيوتهم حوله . ولكن الماء لم يعــد يخرج من الارض .. ولكن على مدى أمتار وكيلو مترات توجد اكبر محطات توليد المياه والكهرباء فى كل الاتحاد السوفيتى . فالماء يخرج من الارض ومعه الكهرباء ، ومالا نهاية له من أشجار القطن والفاكهة والاعشاب .

وفى « المدرسة » المشهورة يوجد عدد من الطلبة الذين يدرسون الشريعة الاسلامية . فبعضهم كان يدرس فى القاهرة . وقد حملونى السلام والتحية الى اســاتذة لهم فى الازهر . وكلية الشريعة ودار العلوم . وعنــدما ابديت لهم عدم معرفتى بكل هؤلاء الاســاتذة اندهشوا جدا كيف لا أعرف الدكتور عبد الســلام والدكتور عبد الحميد .. وكان لابد أن أؤكد معرفتى الشخصية بهم ولو اتسع الوقت لتطوعت بنقل اعجاب هؤلاء الاساتذة بهؤلاء الطلبة المخلصين الذين يسجلون القرآن على أشرطة . بعض هذه الاشرطة نقلوها من اذاعة مكة . واكثرهم لا يفرق بالضبط بين صوت الشيخ مصطفى

اسماعيل والشيخ الحصرى .. ولكنهم جميعا يستمعون الى اذاعة صوت العرب .. اما الصور التى على الجدران فى غرفهم الخاصة فهى لجمال عبد الناصر .. وكان حزنهم عليه عميقا !

وامام المدرسة توجد محلات لبيع الاقمشة والفاكهة . وطلبت من المترجمة أن تسأل عن : تفاح الامير .. وسألت . وكانت الدهشة على وجوه الناس تؤكد عـــدم الفهم . وعادت المترجمة تسألنى : صحيح ما الذى تقصده بتفاح الامير ؟

فقلت لها : اننى فقط احاول أن أكون ظريفا ..

فقالت : ولكنهم لم يفهموا . عندهم نفس الاستعداد . بشرط أن نتفق على معانى الالفاظ !

معك حق فنحن لم نتفق على معانى الالفاظ ، لا هنا ولا فى اى مكان فى العالم . والا ما معنى هـــذه الكلمات : الحرية .. الواقعية .. الديموقراطية .. الاشتراكية .. العدوان .. السلام .. الحرب .. والف كلمة اخرى !

وكل الذى أردت أن اقوله هو أن عندهم حكاية عن أحد حمامات السباحة . وكان الحمام يموج بالفتيات الجميلات العاريات . وكان اذا اراد أن يختار منهن واحدة القى عليها تفاحة .. فتأكل التفاحة وتخرج ليأكلها الامير .. ويبدو أنالامير قد أخذ معه التفاح والفتيات الجميلات .. وبقى الحمام جافا !

وضحكت بائعة التفاح عندما شرحت لها النكتة و « الخلفية » التاريخية للأمير .. وضحكت أنا أيضا : أن بائعة التفاح قد ضحكت لانها لم تفهم النكتة ممكن !

وليس من المعقول طبعا أن اربط المرافقة والمترجم ، الاثنين معا ، فى الراديو ليترجما لى كل الاغانى التى لا تتوقف من السابعة صباحا حتى منتصف الليل . اما نشرة الاخبـــار فقد ترددت فيها كلمات اعرفها ، واعرف الموضوع طبعا : الرئيس الســـادات .. الرئيس بودجورنى .. اسوان فالمناسبة عن احتفالات السد العالى .

اما الاغانى ذات الموسيقى الشرقية الجميلة الشجية فقد سمعت اصواتا أخرى كثيرة متشابهة لهـا : الاغانى التركية والفارسية والهندية . انها ليست غريبة عن اذنى ولا عن قلبى .. وهى أيضا حزينة . وكل أغانى الحب لا تخلو من الحزن : الحب والشوق الى المحبوب والخوف على الحب من الزمن والخـوف من الزمن على حياتهمامعا ، وعلىالاسرة والمستقبل .. انها اغنيات شرقية صميمة اى عميقة الحزن والاسى !

وفهمت من الشبان الادباء الذين قابلتهم أن كل شىء يتغير نحو الاحسن وأكثر شىء اسعدنى ان وجدت بعض كتبى فى ايديهم . وان واحدا منهم يعد رسالة جامعية عنى ـ اننى اعلو على الارض بضعة امتار من الفرحة ـ ولم اعرف ما الذى اصنعه فى مثل هذه الحالة سألت ان كان من الممكن تقبيله على وجنتيه كدليل على فرحتى به .. او بنفسى . فقيل : انه من الممكن أن اقبله فى وجنتيه وفى شفتيه ايضا وفعلت !

وفى احدى الليالى والموسيقى والكلام الحزين الذى لا أعرف معناه امسكت كتابا عنوانه «رسائل عن الحب» وباللغة العربية . والمؤلف اسمه عادل طوطوى وهو أديب تترى والكتـاب طبعت منه مليون نسخةثم حوله عبد الرحمن منسكى الى مسرحية . وحوله الموسيقار جودة فيظى الى أوبرا ..

الكتاب تحفة ادبية رقيقة حزينة ومليئة بالايمـان بالمستقبل ، والامل فى مجتمع افضل ما دامت الاسرة قائمة على الحبوعلى الابناء وعلى حب الوطن والكتاب رسائل كتبتها فتـاة اسمها عالية الى حبيبها اسكندر . الفتاة أحبت اسكندر وانجبت منه فتاة اسمها قدرية .. وولدين آخرين .. وانفصـل الزوجان ولكن الزوجة كينبوع ماء عميق .. ولانه عميق فانه يندفع الى أعلى بقوة .. فهى مندفعة دائما الىاعلى .. الى السماء . تقول الفتاة انا الفتاة اليتيمة التى لم تر السعادة الا فى الخيال ، ولم تقرأ عنهـا الا فى الاساطير ، وكثيرا ما اغرتنى أحلام اليقظة .

وتقول عالية : اننا نتطلع الى المستقبل ، يجب ان نفكر فى المستقبل ولا نفكر الا فيه ، ذلك أن سعادة الحاضر وايماننا بعدنا لا يترك لنا مجالا لنذكر ما مضى من لحظات .. فالتفكير فى الماضى يبعث على الحزن واليأس .. »

وعندما تحدثت عن حبها لزوجها ، أو للرجل الذى اصبح بعد ذلك زوجها تقول : اننى اتذكر ما قاله الشاعر عبد الله نوفاى الفازانى (١٨٨٦ - ١٩١٣)

تكتمت هذا العذاب الذى
يحرق فى مهجتي اذ سرى
تكتمته وانا حائر .
ترى هل سواى بهذا درى ؟!

وتقول عاليه : ان الحب يضفى على المرء مزيدا من الجمال .. فحينما دخلت الغرفة ، بعد ان قبلتنى ، بادرت الى النظر فى المرآة لارى وجهى .. وجدت خدين كتفاحتين ، وعينين متألقتين . وقلت لنفسى : اننى حقا جميلة .. ان كارل ماركس نفسه ، ورغم عنانه ، كان يجمع الاغانى الشعبية ويهديها الى زوجته مع هاتين الكلمتين : « هدية لقلبى ! »

وتقول : اننى أصدق ما قاله الكاتب الفرنسى اناتول فرانس : لكى تحب حقيقة ، يجب ان تحب كثيرا .. نعم كثيرا لا كثيرات .. ولا كثيرين ؟! »

وتقول : كنت اظن أول الامر ان الحب سوف يعطلنى عن دروسى ، ولكن الحب الحقيقى مرتبط بحب العمل أيضا ولذلك كنت اشعر بقوة جديدة كلما رأيتك .. فالمحبة الحقيقية لا تطور الانسان فقط ، وانما تطور البلاد ايضا ..)

ومن اعجب ما جاء فى هذه القصة الجميلة ان عاليه هذه اتفقت مع زوجها على شيء غريب . اتفقا على أن يكون هناك « دفتر للعائلة » يكتبان فيه متاعبهما اليومية . ثم كيف استطاع كل منهما حلها .

وهذا الدفتر هو سجل الماضى هذه الحياه وعليهما أن يتركا ذلك لابنائهما . فان كان الذى جاء فى الدفتر معمولا استحق الاثنان من الابناء كل تحية وتكريم .. وان كان ما جاء به سخيفا ، ففى ذلك ما يضحك الابناء والاحفاد بعد ذلك .. ولكن الزوج رفض هـــذه الفكرة . وقال انها خيالية سخيفة .. ولكن الزوجة أصرت على ذلك .. وكتبت لابنائها فالمستقبل هو ما يشغلها . والمستقبل هو كيف تكون أسرة وكيف تخرج منه أسرة أفضل .. شعب أفضل .

ولكن الزوج من رايه ان المستقبل لابنـــاء المستقبل . اما أبناء الحاضر فعليهم أن ينشغلوا بأن يجعلوا أيامهم احسن من ماضيهم .. بأن يجعلوا المداخن أكثر والمزارع اوسع والصحة اقوى والتفاهم اعمق ..

وهناك اسطورة روسية تقول ان فلاحا ذهب يبيعاوزة فى السوق .. وسبقته الاوزة . واتجهت الى رجـــل من المثقفين وسألته : ياسيدى ارحمنى من هذا الرجل . ان اجدادى انقذوا مدينة روما من الدمار . فقال لها المثقف : اجدادك أنقـــذوا روما . ولكن ماذا صنعت انت ؟

قالت : ان اجدادى يستحقون الاحترام .. وانا ايضـــا . وقال الرجل : فعلا أجدادك يستحقون الاحترام .. ولكن ما شأنك انت .. أنت تستحقين البيع والذبح والاكل بعد ذلك !

ثم هذه النكتة الروسية ايضا : يقال ان أحد القادة السياسيين جمع حوله الناس وراح يخطب فيهم فقال : فى السنة القادمة سوف يكون لكل مواطن موتوسيكل .. وفى السنة التالية ســـوف تكون عنده سيارة .. اما فى نهاية الخطة الخمسية الاولى فسوف يكون لكل مواطن طائرة .

ثم جلس الخطيب . وسأله احد المواطنين : ولكن لماذا طائرة ؟

وكان رد الخطيب : لكى يتمكن من شراء التفـــاح من جمهورية اخرى !

نصيحة:
سافر
بلا حقائب
هذا أفضل!



عندما ذهب الاديب جوركى لزيارة تولستوى ، أطلق عليه تولستوى عشرات من الاعيرة النـارية ـ أقصد الاسئلة : ما رأيك فى نفســـك . ما رأيك فى زوجتك ؟ هل تعتقد أن ابنى موهوب ؟ هل أنت راض عن نفسك ؟ ماهى آخر قضية تناقشها وســـوف تعرضها فى قصة ؟

يقول جوركى : واحسست أن هذا الرجل لا تربطه بى أية علاقة انسانية .. اننى عينة بشرية فى أحد معامله واننى تحت التجربة .. وانه يفكر اكثر مما يجب . ولعنت فى سرى صناعة الادب التى تجعل رجلا عبقريا مثل تولستوى بهذه الوحشية ..

ويقول جوركى : اننى أتذكر عبارة للفيلسوف الالمانى نيتشـه يقول فيها : « ان كل انسان هو عبد ذليل لاحد المبادىء الاخلاقية .. أما انا فأقول أن الاديب خادم لمومس .. لا يحترمها ولا يحبها .. واكثر من ذلك انه لا يعرفها .. لماذا ؟ لانه من الضرورى أن يقول .. واذا حاول الا يقول ، فانه سوف يقول ذلك مرة أخرى ! »

أى اننى لابد أن اقول .. لابد أن تتحول الدنيـا الى كلمات .. والناس الى حروف .. وقطرات العرق والدموع الى نقط وفوق وتحت وبين الحروف ..

واصعب من ذلك انه لابد لى أن اختار من الذى اقول عنه او تقول عليه .. او اقوله .. لقد قابلت الكثيرين . واكثرهم لم يترك فى نفسى أثرا عميقا لم يتسع لنا الوقت او اتسع الوقت ولم يتسع الصدر .. أو اتسع الصدر ، واعتذرت اللغة التى لا أعرفها ، او التى لا يعرفها .. والنية الطيبة لا تصنع ادبا !

ولابد أن أختار .. كيف ؟

تقول ملحمة روسية قديمة عن الامير ايجور ان الساخر العظيم كانت له طريقة فـــريدة فى اختيار الشخص الذى يغنى او يتغنى بالتاريخ المجيد للامير واسرته .. وكان الساحر يتسلل الى احد الاشجار .. ومن هذه الشجرة يطلق عشرة من النسور .. وقبل ان تنطلق النسور يطلق امامهــا عشرات من طيور البجع .. والبجعة الاولى التى تقع فى مخالب امهر النسور هى التى يجب أن تغنى .. اى انه يحكم عليها أن تغنى . ومحكوم عليها مرة أخرى انتغنى امجاد اسرة الامير . أو بطولات التاريخ الروسى القديم .

ولم اجد اننى فى حاجة الى سحر ساحر ، ولا الى براعة النسور .. فطيور البجع هناك .. فى كل مكان أسأل اى انسان وانت تعرف حكاية هؤلاء الناس ..

أول واحد .. كان اديبا قادما منـــذ أيام من فيتنام .. اسمه ماريك .. من أصل بولندى .. شعره أسود تدلى على قفاه .. انه ليس احد الخنافس ولا هو يقصد الى ذلك .. وهو فى غاية الهدوء ويتكلم الفرنسية ، وتحس ان كلمة « فنان » تنطبق عليه تماما .. هذا اذا كان المقصود من هذه الكلمة انه انسان بسيط .. وان هذه البراءة والطفولة التى على وجهه هى طبيعته ، وليست قناعا أعد لاستقبالنا .. ويبدو انه احس ان اللغة الفرنسية تسعفه فى الدلالة على طبيعته او على مدى محبته لفيتنام .. او اندماجه فى صراعها ، او فى الكتابة عن هذا الصراع . فقد دعانا الى بيته . انه أول روسى

يدعونا الى بيته مع الاسف .. وهو يسكن فى شقة صغيرة من ثلاث غرف صغيرة . الشقة كلها تؤكد انه احـــد السعداء بخراب بيت فيتنام . فقد جمع من آثارها الشيء الكثير . من بيوتها ومتاحفها . ونقل ذلك الى بيته وعلقه الى الجدران مع عظيم الاحترام والامتنان لا اعرف ربما كانت هذه التحف عهدة لديه . وســوف يعيدها الى فيتنام بعد ازالة آثار العدوان الامريكى عليها . ولكن لم افهم منه ذلك ، وانما انا أجتهد فى تفسير هذا المتحف الصغير الذى فوجئت بوجوده . احدى الغرف مكتبة ــ .. والغرفة الثانية للنوم .. أما الغرفة الثـالثة فهى المطبخ . وهى أبسط واجمل غرف البيت . فالمنضدة الصغيرة ، التففنا حولها اما الجـــدار الذى وراءنا فقد ازدان بزجاجات الشراب الفارغة من كل الالوان والاحجام والبلاد . اما الطعام الذى امامنا فيمكن ان يوصف بأنه ترجمات مختلفة لكلمة واحدة هى : الشطة .. ولكى أكون امينا فاننى لا أقول انها ترجمات وانما هناك اقتباس خفيف واقتباس عنيف .. فالفودكا قد وضع فيها الفلفل .. والجبنة قد وضعت فيهـــا الشطة ، والسمك قد حشاه بالفلفل الاحمر والشطة والبصل والثوم .. والصلطة ان لم تكن من النار الحضراء ، فلابد انها من الخضراوات النارية .. والبيت دافىء جدا . وتعالت صيحات الالم : آه .. اف .. النار .. ويبدو ان صديقنا الاديب الروسى قد توقع ذلك ، فاعد لهـــذه المناسبة زجاجات المياه المعدنية ..

وهـــو روسى اولا وآخرا .. ولذلك يجب أن ترتفع الكئوس فى ايدى الحاضرين ليشربوا فى نخب الصداقة والمحبة والســـلام .. وكانت الكئوس ترتفع لتسقط بسرعة .. ولا تلبث أن تتراخى فى الارتفاع .. وعمليات النفخ والصراخ فالكئوس تمشى فى اتجاهين متضادين : النفخ فوق والاكواب تحت !

كان رقيقا هـــذا الاديب السوفيتى وبلغ من رقته انه جاء لوداعنا .. اشكره الف شكر على ذلك .. فقد كان مريضا .. ورفع

مرضه الذى احمرت له عيناه وشفتاه ووجنتاه وانفه ايضا . فقد جاء ليقول لنا : الى اللقاء .. وهزنى موقفه هـــذا . ولما قلت له ما كان ينبغى أن تكلف نفسك كان هذا التليفون يكفى . ولكنه قال : آه لو تعلم .. اننى مصاب بانفلونزا آسيوية !

يانهار اسود .. انفلونزا ؟ الم يجىء اليك تقرير من القاهرة يقول لك اننى من اشد الناس خوفا من الزكام الم يترجموا لك اننى عندما جئت الى موسكو منذ خمس سنوات زفت الى النـــاس اكتشافا عظيما : أن ميكروب الزكام لا يعيش فى الجو البارد تحت الصفر . وان شجاعتى فى الخروج الى الشارع فى موسكو وبلا جوانتى سببها ايمانى الشديد باستحالة الزكام .. انها كارثة اذن .. سوف أصاب بالزكام وأظل نائما فى غرفتى كل الايام الباقية من هذه الدعوة الكريمة لا أعرف ما الذى فعلته عنـــدما سمعت منه ذلك .. ولكن فككت العناق الحار وانطلقت الى الشارع لكى أقضى على الميكروب فى الجو البارد .. واكتشفت انه من الممكن أن اقضى على الميكروب بأسلوب آخر .. يكفى ان أموت أنا ، فلا يجـــد الميكروب ما يعيش عليه ، وبذلك أنجو من الزكام !

ثم عدت من الخارج لاعطيه يدى واشكره على روحه النبيلة .. وفى ذهنى معنى هو خلاصة مركزة لخيبة الامل : فقد عرفت الآن أن ميكروب الزكام يعيش وينتعش تحت الصفر . وهذا الاديب دليل على ذلك .

وتخيلت اننى اخرجت من جيبى ورقة كتبت عليها أسماء بعض الناس .. ثم اخرجت من جيبى عود كبريت واحرقتها .. وتخيلت أن ساحرا أعطانى نايا ورحت اقلد نيرون سعيدا باحتراق كل هؤلاء الناس الذين دعونى لزيارة روسيا !

ومن العجيب اننى لم أصب بالزكام حتى وضع هذه النقطة فى نهاية هذا السطر .

كان فى نيتى أن اكتب عن فرحتى بلقاء الشاعر الفلسطينى محمود درويش وكيف أمضينا ساعات فى موسكو نتبارى فى اليأس .. ثم توقفت عن هذه المباراة .. لان التوقف معناه اننى يائس من المباراة فى اليأس ..

لقد تفوقت عليه !

⊙❖⊙

وعلى مدى خمسين كيلو مترا من مدينة ليننجراد ذهبت لزيارة احد قصــــور الثقافة .. او احدى استراحات الادباء .. فالادباء يذهبون الى هذه الاماكن « ليفرخوا » أفكارهم .. أما الاديب الذى سافرنا اليه فهو من الاسكيمو . وقد سمعنا قصته على مسمع منه .. فهو من اسرة بدائية . علم نفسه وساعدته الدولة . وهو أحد مؤلفى القصة القصيرة المشهورين . وقد استمعنا الى احدى قصصه من اذاعة صوت العرب . زوجته روسية ، وابنته كانت تجلس معنا وابوها يسمح لها بأن تشاركه فى شرب النبيذ .. وفجأة تحول الكلام الى الجنس .. وكان مكشوفا ، وقد رفضت المرافقة لنا أن تترجم النكتة النابية جدا التى قالتها زوجة الاديب .. وهنا تحرج الاب ، ولم تتحرج الام . وطلب الى ابنته أن تخرج لاى سبب .. كأنه فلاح من أرياف القطب الشمالى .. ولم نناقشه فى هذا التصرف . ولكن فهمنا انه ككل اب محافظ او أن هذه الروح المحافظة مسألة مرحلية حتى تكبر البنت ، وتتسلم حصتها من الحياء والحرية كأى انسان بلغ سن الرشد !

ويبدو أن الاديب لكى يتمكن من الخلق والابداع محتاج الى هذه العزلة التامة . وقد يبقى هنا اياما أو شهورا ، وله حجرة وحمام .. وغيره فى هذا البيت كثيرون . أما الزوجات والاولاد فيجيئون فى نهاية الاسبوع وبعد ذلك يتركون الاديب ينفرد بنفسه وبفنه .. وهى عزلة عن المجتمع لكى يعود اليه ... أو لكى يعود بصدى المجتمع الى المجتمع فالفن صوت المجتمع وصداه أيضا !!

وتلفتنا نحن بعضنا الى بعض ودون ان ينطق واحد منا بكلمة تنهدنا معا وقلنا : ياريت !

ولم نتفق على معنى « ياريت » هذه .. فنحن امام غرفة دافئة .. وامام طعام بسيط .. وامام اب من الاسكيمو .. وفى قصر كبير .. وفى غابة جليدية .. وجو صحى .. وهدوء عميق .. ورجل يكتب .. اما الذى دار فى رأسى فهو : ياريت اشوف أديبا أكبر ! ..

وخطر لى ان أطلب رؤية الاديب الروسى الكبير شولوخوف مؤلف « نهر الدون الهادىء » والفائز بجائزة نوبل .. واعلنت عن هذه الأمنية .

ولكى تعرف غرابة هذه الامنية وشذوذها ، دعنى انتقل الى محطة مصر بالقاهرة . تخيل الآن تلميذا جاء من اقصى الصعيد .. ونزل من القطار .. وخرج الى ميدان المحطة واول شيال رآه سأله : قل لى يا عم هو فين بيت طه حسين ؟ !

كأننا هذا التلميذ الصغير وكأننا طلبنا شيئا خرافيا .. والحقيقة لم أفهم أين هى الخرافة ؟ فنحن لم نطلب رؤية تولستوى الذى مات من ستين سنة .. ولا اظن ان المسافة بيننا وبين شولوخوف بعيدة الى هذه الدرجة فلا هو كبير جدا ولا نحن صغار جدا .. ولذلك تعاونا جميعا على دفن هذه الامنية .. واجلناها الى ما بعد وفاة شولوخوف !

◎❖◎

فى طشقند كان المرافق لنا ابنا لاحد رجال الدين المسلمين .. والطاقية التى على راسه دليل على ذلك . وقد وعدنا برؤية والده فى اقرب فرصة . ولا اذكر الآن لماذا لم نتمكن من ذلك .. وكان من نصيبى أن ننام فى غرفة واحدة .. ولم اتصور انه ظريف ومرح الى هذه الدرجة .

وفى احدى الليالى تمددت على سريرى . . وتمدد هو على سريره . واخرج من جيبه ورقة يقرأ فيها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلا واتى الزكاة ولم يخش الا الله » وكان ينطقها بصورة مضحكة . وكنت اصوب له طريقة النطق . اما المعنى فهو لا يعرفه ولايعرف من اللغة العربية الا الكلمات التى بقيت فى اللغة الزبكية .

اما لغته الانجليزية فهى أقرب الى الاوامر العسكرية . فقد اخرج من حقيبته كتابا فى اللغة الانجليزية . وفجأة جلس على السرير وقال : القراءة اى سأبدأ فى القراءة وقرأ وصوبت له نطقه .

وبعد ان قرا اعتدل على السرير ليقول : المعنى — أى ارجوك ان تشرح لى المعنى .

وبعد ان شرحت له المعنى تمدد والقى بالكتاب على الارض وهو يقول : النوم — ثم نام !

أما اسم هذا الشاب الظريف فهو : نور الدين سيف الدين ولكنه لا يعرف كيف ينطقها وانما يقول : نور الدين زيف الدين . ولما شرحت له الفرق بين زيف الدين وسيف الدين عدل تماما عن النطق القديم . واخذ يسألنى عن كثير من الاسماء والكلمات العربية والاسلامية الموجودة فى لغته ، صححت له نطق كثير من هذه الكلمات — صححتها لشخص واحد سوف ينساها بعد سفرى .

وسألنى : ما هى بالضبط ملامح العربى ؟

فقلت له : بالضبط كملامح السوفيتى .

وقال : ولكن السوفيتى ليست له ملامح واحدة . . لان السوفييت كلمة سياسية . .

فقلت : وكذلك العربى .. فنحن ـ مثلكم ـ خليط من اجناس والوان اوربية وآسيوية وافريقية .. من ألوف السنين !

وسألنى : هل تتزوجون اكثر من واحدة ؟

قلت : ممكن .. ولكن ليس كثيرا .

ـ والطلاق ممكن ؟

ـ طبعا .

ـ وكل الناس يصلون فى المساجد ؟

ـ بعض الناس .

وفجأة جلس على السرير ليقول : القراءة ..

فصرخت : النوم !

وأول مصرى يدعونا الى بيتــه كان الهـــادى كامل نور ـ ابن الفنان الكوميدى المعــروف . اما خطابات الاب فهى صفحات من ادب الدنيا والدين مليئة بالآيات والاحاديث . وكلها تدعو الابن الى التمسك بالعــروة الوثقى .. بحبل الله .. وان من جد وجد .. واغسل يديك قبل الاكل وبعده .

وهذا الشاب ليس فى حاجة الى ان يشرح لك طيبة قلبه وصفاء نفسه وايمانه بالله . وتقديسه لوالديه فكل ذلك واضح ، ولا يتعب من ان يقول : ان والدى قــد تعب كثيرا ولايزال ، وانه يستحق التكريم .. وربنا يقدرنى !

وكان من الواجب ان نتنــاول الغداء عنده واعتذرنا ، ولابد انه ادرك المعنى فقال : الحمد لله .. مستورة والطعام هنا متوافر .. ولن يكلفنى اى شىء . والى جوارى توجد جمعية استهلاكية ضرورى من الغداء وسوف اطبخ كل شىء بنفسى . فقد تعلمت من والدتى كل شىء .. وآخر خطاب تلقيتــه منهــا كان عن كيفية صــناعة « كباب الحلة » .

وكانت فرصة أن نزور بيت مبعوث مصرى يجاهد فى سبيل العلم . وقد وفقه الله الى كثير مما يريد . فهو يتكلم الروسية بطلاقة . وهو متقدم فى علومه ويلقى التقدير من اساتذته .. حتى شريكه فى الغرفة الصغيرة فهو يتركها له معظم الوقت .. أما الغرفة فهى صغيرة جدا . سرير له على هذا الجانب ، وسرير آخر لزميله الروسى . والمكتب يشغل ربع الغرفة .. والربع الثانى يحتله الدولاب .. وفى الوسط انحشرت منضدة وحولها تزاحمنا .. وعلى موسيقى غناء أم كلثوم انتظرنا .. وواضح جدا انه هو الذى اعد كل شيء فالاطباق غسلها ولا تزال مبللة . وقد تعاونا على تجميعها .. والملاعق ايضا .. وبين الحين والحين يؤكد لنا : حالا .. سوف نتناول غداءنا .. بالهنا والشفا .. اننى أجتهد فى الطبخ .. ولكن سيكون لذيذا ان شاء الله ..

وطلب الينا أن ننهض لكى يتحرك فى الغرفة .. وفتح الدولاب .. وسحب احد الادراج ، واخرج منه صينية بطاطس .. وكان لابد ان نضحك .. ويسحب الدرج الآخر واخرج كباب الحلة .. والدرج الثالث واخرج الصلطة .. ووقف على الكرسى ليسحب طشتا صغيرا به اربع دجاجات محمرة .. والله العظيم ثلاثا لابد ان ننتهى من هذا كله .. وقبل أن يجلس سحب كوما صغيرا من الارز المسبك من تحت السرير !

وكان الطعام لذيذا شهيا وكثيرا .. وجاء الشاى الاحمر اللون بالنعناع يغطى على التفاح والجاتوه .. وكان من الصعب أمام هذه الايمان المغلظة وهذه الروح الريفية السمحة ، أن نرفض أى ارز او بطاطس أو بومبون بعد كل هذا !

◎❖◎

انكسرت اللمبة الموجودة فى أعلى سريرى فى فندق سمرقند الجديد . وقيل لى فى ذلك الوقت : هل المشرفة على هذا الطابق

قد دخلت معك الغرفة . فقلت : لا . . فقيل لى : اذن هى لا تعرف ان كانت اللمبة مكسورة قبل أو بعد مجيئك . قلت : نعم . .

وجمعنا الزجاج المكسور والقينـــاه فى البلكونة . . ولم يتسع وقتى لكى أفـكر مرة اخرى فيما حدث ، فقـد كان من الاكرم ان اخبرها بذلك ، حتى لا يدفع ثمن اللمبة انســان آخر لا ذنب له . وان اعتذرت عن ذلك من كل قلبى !

وفى مدينة طشقند تجمعنا فى احدى الغرف وشربنا الشـاى . ونقلنا الاكواب من غرفة الى غرفة أخرى . وقبل منتصف الليـل عاد كل منا الى غرفته . وعندما دخلت الفراش لأنام نهضت لأعرف من الذى يدق الباب . وكان المترجم وفى يده الاكواب التى نقلتها من غرفتى . . وقبل ان اسـتوضحه قال ضرورى أن تعـود هذه الاكواب الى غرفته حتى لا تضايقك المشرفة على هذا الطابق !

وجاء النـوم يحول بينى وبين التفكير فى هـذا التصرف ولكنى عرفت المعنى بعد ذلك وفى آخر يوم فى موسـكو . فقد خرجت من الفندق فى ساعة مبكرة وجاء من يحمل الحقائب . . ودخلت سيدة ونظرت فى كل محتويات الغـرفة . . البطاطين والملايات والاكواب والبراد والصينية والشماعات . . وجهاز التليفزيون وقالت هذا التليفون قد سقط منك على الارض ؟ فقلت لا . . لا أظن ذلك !

وخرجت . وعرفت أنه من الضرورى أن يجىء من « يتمم » على محتويات الغرفة قبل سـفر اى نزيل . . والا فلن توقع بامضائها على تصريح الخروج بالحقائب من الفندق !

وقبل أن اذهب الى مطار موسـكو عائدا الى القاهرة ، فمن المناسب جدا أن انقل كلمات للرحالة الاندلسى ابن جبير الذى زار مصر فى نهاية القرن الثانى عشر . يقول ابن جبير عندما رأى رجال الشرطة والامن يفتشـون المسـافرين الى الاراضى الحجازية عبر

النيل . يقول ابن جبير : ومن اشنع ما شاهدناه خروج شرذمة من اعوان الزكاة فى يد كل منهم «مسلة» طويلة .. كانوا يصعدون الى المراكب استكشافا لما فيها .. فلا يتركون « عكما » أى غرارة الا ويتخللونها بالمسلة الملعونة مخافة أن يكون فى تلك الغرارة التى لا تحوى سوى الزاد ، شيء اخفيناه عليهم من بضاعة أو مال .. وهذا اقبح ما يؤثر فى الاحاديث .. وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف عن شيء يرجى ستره »

اما نحن فى مطار موسكو ذهابا وايابا فلم تنفتح لنا حقيبة ..

ولكن عندما عدنا الى مطار موسكو كنا فى حاجة الى ابن جبير .. فقد كان يودعنا احد كبار اتحاد الكتاب السوفييت .. لقد جاء الينا فى الفندق . وانتظرنا ، ورافقنا . وأمام الميزان ارتفعت الحقائب .. اما انا فقد أشار الموظف المسئول الى ضرورة أن ادفع ١٢٠ روبلا . أى روبلين مقابل كل كيلو زيادة فى الوزن .. مائة وعشرون روبلا فى المطار ؟! ياخبر .. اين هذه الزيادة فى الوزن : حقيبتان ظننت بالحداقة اننى سوف استغفل موظفى المطار واحملهما معى فى الطائرة . ولا داعى لمعرفة وزنهما !. والحقيبتان فيهما كتب ــ نعم كتب اشتريتها بفلوسى ، عن روسيا وعن الحياة الادبية والفكرية ــ اى والله انا حر طبعا . وكان فى استطاعتى ألا افعل ذلك . ولكن لابد من وزن الحقيبتين .. ولابد من وزن كل ما يحمله المسافر . وليس من حق المسافر أن يقرر ان كانت هذه الحقائب سيضعها فوق راسه ، او الى جواره .. وانما موظف الميزان هو الذى يقرر ذلك .. اما اذا لم استطع أن ادفع المبلغ ، ففى الامكان ترك هذه الحقائب فى المطار ، على أن تصلنى فيما بعد . اما العجز عن الدفع فمعناه : الا تكون معى فلوس روسية ، او فلوس صعبة اغيرها فى المطار .. او يتعذر وجود مصرى واحد اقترض منه على أمل أن ادفع له فى القاهرة .. او يدفع له احد المبعوثين فى موسكو . وادفع انا لاهله فى القاهرة .. او ابعث الحقائب الى القاهرة ، وابقى انا فى موسكو .

وتطلعنا الى مندوب اتحاد الكتاب السوفييت .. وكان سعيدا جدا وسارعنا الى ترجمة هذه السعادة .. بأنه لا خوف علينا فسوف يحل هو هذا الاشكال .. ايه يعنى مائة روبل من اجل اديب غلبان ضيف على الاتحاد السوفيتى .. ثم أن هذه ليست عقبة امام كاتب سوفيتى كبير .. ووقفت امام الميزان ، ووقف الناس وراءنا ينتظرون . وتساءلنا : ما الذى ننتظره ؟

وكان مندوب اتحاد الكتاب أسرعنا الى جواب : ادفعوا وسوف ينتهى كل شىء ويتحرك الطابور !

ودفعت وتحرك طابور من اللعنات فى داخلى ..

وفى الطائرة أدركت ان الحق ليس معى . فالقانون هو القانون.. والاصول هى الاصول . وتساءلت ان كنا فى مصر نعامل الادباء السوفييت بنفس الطريقة .. فقيل لنا : لا .. فقلت : اذن انتهز هذه الفرصة لأحيى فى الادباء السوفييت حرصهم ، فى كل الظروف ، على تطبيق القانون !

⊙❖⊙

هذه النكتة ليست لها علاقة مباشرة بما حدث فى مطار موسكو :

يقول الكاتب الامريكى ارثر ميللر انه سمع هذه النكتة من السيدة جاليا زوجة الشاعر الروسى يفتشنكو . تقول جاليا : ان زوجها يعتقد احيانا انه مشهور جدا . وان هذه الشهرة تبرر الكثير من تصرفاته التى لا تعجبها .. فهو اذا ذهب الى المطار يندهش اذا أحد سأله عن اسمه .. أو عن جواز سفره .. وفى احدى المرات كان يقود سيارته .. فكسر الاشارة . وانطلقت صفارة عسكرى المرور . واستوقفه وطلب منه الرخصة . وهنا نظر الشاعر الى

زوجته وقال : سوف ترين ما الذى يفعله العسكرى عندما يعرف من انا ...

وفعلا سأله العسكرى : أنت ايفتشنكو ؟

فقال الشاعر سعيدا : انا ..

وعاد العسكرى يقول له : كيف تكون يفتشنكو وترتكب مثل هذه الغلطة ؟

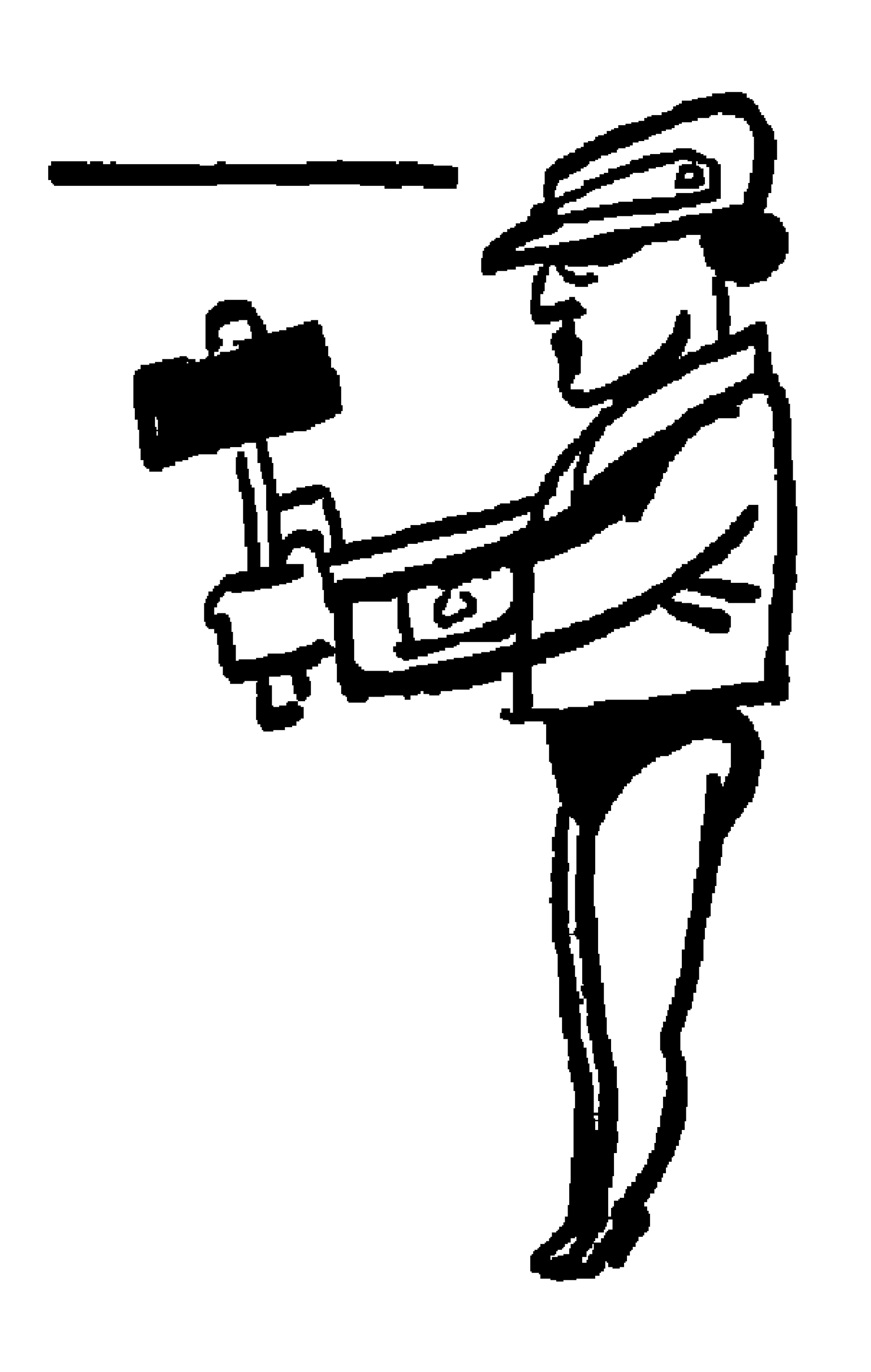
وقال الشاعر : آسف .. كنت أتحدث الى زوجتى ، ولم التفت الى الاشارة .

وعاد العسكرى يقول : هذا لا يليق بواحد مثلك .. له اخ يعمل مديرا للمرور فى موسكو !

فقد كان هناك مدير للمرور له نفس الاسم ، وان لم يكن قريبا للشاعر .. وانهارت الزوجة من الضحك ــ وكسر الشاعر اشارة اخرى ولم يتوقف !



حقوقها
كثيرة..
وأنوثتها قليلة



استدرنا جميعا لنرى فتاة ترقص وهى مخمورة جدا وكانت تنهار على صدر سيدة اخرى .. وكان دور هذه السيدة هو أن تعطل قانون الجاذبيـة فلا تقع على الارض .

اما الفتاة نفسها فكانت حريصـة على أن ترفع ثوبها الى أعلى .. وارتفاع الثوب الى أعلى معناه أن الفتاة تخرج لسانها لقانون الجاذبية الارضـية وكذاب من يقول منا نحن الستة الجالسين ، ان كان يشغلنا أى شىء غير العبث بجاذبية الارض ..

وكان كل واحد يخجل من طبيعته ومن نزعاته الغريزية . دارت مناقشة بيننا . واحد قال : انها مسكينة . فهى زوجة . وزوجها غير موجود . ومن الطبيعى أن تبسط نفسها . ولم يتقـدم أحد ليرقص معها فاختارت حماتها .. تصوروا فضيحتها !

وقال آخر : ولكن منظر فتـاة وهى ترقص مع فتاة اخرى يضايقنى .. وقلنا جميعا فى نفس واحد : وما الذى تقترح ؟

وقال ثالث : الغريب ان أحدا لايمنعها من الرقص بهذه الصورة

ولكن لماذا يمنعها اى احد . واى حق له . انها مبسوطة وترقص ولا تسىء الى احد .. بل انها ادخلت السعادة على بعض المتفرجين

المصريين الذين يتناولون عشـــاءهم فى مطعم ارمنى اسمه ارارات فى قلب موسكو .

ومعنى ذلك ان من حق اى انسان ان ينبســـط على النحو الذى يعجبه لان ضررا لم يقع بأحد او على احد .. وكان هذا الراى مبررا لان ننسد ونسكت .. وسكتنا .

ودارت العيون الى مشهيات أخرى . كل السيقان ملبانة قوية . المشى السريع هو السبب . وفى هذه البلاد من لم يمش ينحمد . والفساتين كلها يئست من النزول الى مادون الركبة . وان كانت هناك محاولات .. فقد رأيت أكثر من واحدة 'طالت ثنيـــه الذيل فنزل الى أقل من خط الميدى . ولكن لم أر فستانا طويلا فى أى مكان .. وربما لاننا لم نزر زوجات الكوادر السياسية .. فكل اللاتى رأيتهن من النسـاء العاديات العاملات الشقيات بالعمل والتعب .

وعند الخروج من المطعم تطالعنا هذه السيدات يكتسحن الجليد. واذا اتسع وقتك فانك سوف تفكر فى « أمر » المراة الروسية . ليس فى امرها بالضبط ، فهناك ملايين من الرجال والنساء وقد شغلهم هذا الامر . ولكن نفكر فقط فى هذا الذى تفعله . انها تقطع الجليد ، وتنقله وليس غريبا أن تسمع من يقول حولك : هذا هو العمل .. بنات كالقمر .. وأجمل من القمر . انظروا ماذا يفعلن . ياعينى علينا وعلى ستاتنا .. لافى لون القمر ولا فى جمـــاله .. ولا يؤدين عملا .. والذى لاتؤدى عملا لايعجبها الحال ولا يكفيها المال !

ومن يقول ايضا : انها طلبت المساواة دعوها تشرب .. المساواة المثلجة . انها عدالة السماء ان يجيء اليوم الذى تطرد فيه حواء من الجنة الدافئة الى جهنم الجليد .. اتركوهـــا . فلن تموت (الارقام تقول انه لم يحدث ان ماتت واحدة فى الشـارع بسبب اكتساحها للجليد !)

ولكن المراة لاتحس انها تفعل شيئا غريبا ، ولا الرجال . انهـا مواطنة تمارس احدى مواد الدستور السوفيتى : المساواة التامة بين الرجال والنساء .. من الشارع الى منطقة انعدام الوزن حول الارض .. ومع ذلك فلا توجد فى روسيا نساء ممتـازات . وانما نساء مجتهدات . فلا توجد الا وزيرة واحدة . حتى عملها ادارى فقط .. انها وزيرة الثقافة !

والوظيفة الوحيدة التى لم تشغلها المراة السوفيتية ، ولا المراة فى اى مكان ، هى أن تكون قاضية !

ولكن ٩٠٪ من المهن الطبيـة ومهن التـدريس تشغلها المراة . حتى يمكن ان يقال ان الطفل السوفيتى تربيه سيدة وتعالجـه سيدة .. أما ماتبقى من شئون التربية والعلاج فتتركه هـاتان لواحدة ثالثة هى الزوجة .. او الزوجات !

وعلى الرغم من هـذا الصمت الرهيب الذى تراه على ملامح السيدات الروسيات فانه صمت ظاهرى . فاذا اقتربت منهـا ، وكانت عندك بضع كلمات فسالتها عن شىء .. هنا فقط تجد عددا من الالوان الجميلة فى عينيها وعلى وجنتيها .. ولا داعى لان تطيل النظر الى شفتيها ..لانك سوف تصطدم بهذه الاسنان.. الذهبية والفضية التى تضايقك .. وتضايقها هى أيضا .. وسوف تجد أن اللغة الروسية غنائية .. وسوف تجد أن الروس ، والروسـيات فيهم شقاوة واضحة .. فى امكانك ان تقول : حيوية . ولكن الذين يعرفون أكثر يقولون انها حيوية واعدة ..

فى احدى الجمعيات الاستهلاكية وقفت فى الطابور . تعبت من الوقوف خرجت من الصف . واشرت الى من يقف ورائى وأمامى الى مكانى بينهما ، تمشيت بضع دقائق أتفرج فى الجمعية وعندما عدت كان الطابور قد اختفى حاولت ان اختار اى مكان واقف فيه. ووقفت وتعالت اصوات غير مفهومة لى بالتفصيل . ولكن واضح

انها اصوات احتجاج على هذه الفوضى ـ احتجاج على تصرفى هذا
واشرت بيدى اننى لا افهم مايقلن . ولكن واحدة اشارت بيدها
ان اخرج .. وبهذه الحركة لم تعد امامى اية حجة فى عدم الفهم .
وعندما قررت الخروج من الطابور اشارت سيدة اخرى ان آخذ
مكانها .. ووقفت ودفعت .. ونظرت الى السيدة التى احتجت
وكنت أريد أن اقول لها : لو نظرت الى وجهك الان وهو عليه الوان
الكسوف والاعتذار والتحفز ، ماغضبت ابدا .. ولابد ان احدا
قد أخبرها بذلك فى العشرين سنة الماضية . فهى ماتزال جميلة
وفيها (الحيوية) الروسية !

وفى احدى المكتبات اشتريت عددا من الكتب . من فلوسى
والله العظيم وكلها عن روسيا والادب الروسى وغاليه الثمن .
واشارت البائعة الى أن ادخل بين رفوف الكتب واختار ما احب
ودخلت ودفعت . واخطأت الفتاة فى الحساب ثم ذهبت ادفع .
وعادت الفتاة تقول لى ان هناك خطأ فى الحساب .. ونظرت الى
الآلة الحاسبة الخشبية . وهى عبارة عن حبات من الكرات
الخشبية تحركها يمينا وشمالا .. انها آلة صينية . وظهر الخجل
على وجه الفتاة فقلت لها : مادمتم تستخدمون الحساب الصينى،
فلابد من الغلط .

ولم تضحك للنكتة خصوصا اننى تلاعبت بكلمة (حساب) ،
فعدت اشرح لها النكتة لاكتبها بعد ذلك . فلم تضحك . وسألتها
لماذا لم تضحكى لهذه النكتة التى ضحكت لها المرافقة لنا عندما
رويتها لها .. فاشارت الى أن ضرسها مسوس .. ولكن سوف
تضحك لها فيما بعد !

ولم اتمكن من أن استنتج ان كان ذلك عيبا فى صناعة الاسنان
.. او ان هذا عذر جاهز حتى لاتضحك لنكتة قد تكون سياسية .
خصوصا انها لاتعرف من اى البلاد انا .. ربما تصورت اننى من

امريكا مثلا .. وانها لاتحب ان يكون ضحكها هذا دليلا على المسافة البعيدة بين موسكو وبكين .. لم افهم على كل حال !

بقي ان اتحدث عن نوع آخر من النساء الروسيات . كان ذلك فى طشقند واحسست بدوخة شديدة . اما تشخيصى انا لهذه الدوخة فهو انني لم انم جيدا فى الليلة السابقة . فقد كان الجو باردا جدا . والتدفئة ليست جيدة فى الفندق ونسيت أن اطلب مزيدا من البطاطين وعندما اصابني الصداع ابتلعت قرصين . ويبدو أن القرصين منومان . ثم نهضت وارتديت ملابسى وشربت المزيد من القهوة والشاى اغالب النوم .. فهذه الدوخة بسبب الارهاق والمقاومة العنيفة للمادة المنومة .. انتهى تشخيصى المتواضع . وذهبت الى الطبيبة . وكتبت الاسم والعنوان والسن واسم الام والاب وطلبت منى أن اصف مايوجعنى . وقاست الضغط والنبض . ووضعت مقياس الحرارة تحت أبطى . وسألتنى عن أمراضى وعن متاعبى . وانتهزت هذه الفرصة لاعرف بالضبط ما الذى سوف تعمله . وقلت : آه .. هنا . واشرت الى جنبى الايسر .. وآه هنا واشرت الى الجانب الايمن . وطلبت منى أن أخرج لسانى واخرجته .. وأن أفتح عيني .. وفتحتها وأن اقول آه .. وقلتها وأن اتمدد وتمددت ورأيت الحيرة فى وجه الطبيبة !

وكما هى عادة الاطباء لم يظهر عليهـا أى تأثر لحالتى ولا رثاء لشخصى وهذا طبيعى . فليس من الممكن أن يكون الطبيب رقيقا الى هذه الدرجة .

وسألتها : الحالة ميئوس منها يادكتورة ؟

فقالت : سأعطيك الدواء .

وسألت : لكن هذه الاوجاع ..

وهزت راسها : نعم

وفتحت زجاجة واعطتنى ثلاثة اقراص لاتناولها قبل العشاء وقبل النوم .

وبمنتهى الرقة نظرت الى مريض آخر .. وانصرفت . وانتهزت هذه الفرصة لاعتذر لها . فلم اكن مريضا وانما أردت ان اعرف كيف يعالجون المرضى فى روسيا ولكنها حرمتنى من هذه الفرصة . وفى الليل نمت . وفى الصباح ذهبت اليها لاشكرها .. وتقبلت الشكر بنفس الاهتمام الذى استمعت فيه الى آهاتى بالامس !

فما هى هذه المراة الروسية ؟

ان المراة مقياس حضارة المجتمع فاذا كانت مساوية للرجل فالمجتمع متحضر واذا كانت دون الرجل ، فالمجتمع اقل تحضرا .. ومن المؤكد ان المراة هنا تتعلم وتعمل مثل الرجل والفرص واحدة . وقدراتها الطبيعية هى التى تدفعها الى اعلى جوار الرجل .. او الى أعلى وتظل دون الرجل ايضا ..

والمراة الروسية خليط من الرجل والانثى .. انها قطعت الطريق الصعب ، حتى اصبحت الى جوار الرجل ومعه وضده ، وهى الآن تريد ان تعود الى أنوثتها ! .

لقد قرات عبارة قالها الناقد زادنوف عن الشاعرة اخماتوفا ، قرأ لها بيتين معناهما :

« اقسم بملائكة السماء ، أقسم بكل تماثيل الكنائس ، اقسم بليالينا الحمراء النشوانة .. » — قال زادنوف : ان هذه الشاعرة اخماتوفا سيدة مجنونة فى رقة ، سيدة حائرة بين السرير والكنيسة ، نصف راهبة ونصف غانية بل هى راهبة وغانية معا .. بل انها حتى عندما تريد ان تكون غانية فانها تصلى من أجل ذلك .. بل انها تصلى فى الحالتين » !

ان هــذا الناقد البسيط العميق لم يقصــد
الشاعرة الكبيرة وحـدها . . انه يتحدث عن كل
النســاء وكل الرجال . . قد احسـنا بهـذه
المعانى ونحن نتفرج على الفتاة المخمــورة . . .
لقد عطينا اجســام الذئاب بمسوح الرهبـان !

⊙✤⊙

وبعد الثورة السوفيتية سنة ١٩١٧ حدث انحلال عام . لقد جاءت الثورة تهز اسس المجتمع . وتســاقط الكثير من القواعد . وتمزقت الروابط . وتصور الناس أن الثورة هي على كل شيء : الطيب والسيء .. وظهرت هناك عبارة الحريات العاطفية . . أو الحريات الجنسية . . وتفككت العلاقات العائليــة . وأصبحت كلمة الشيوعية مرادفا للشيوعية الجنسية . وظلت الحـــال كذلك أكثر من عشر سنوات وكانت المراة السوفيتية تعرف انها أكبر عددا . وان المجتمع يقف على ذراعيها فقد كان عدد النساء في تعداد ١٨٩٧ : امراة مقابل مائة رجل . . وفي ١٩٢٦ ـ كان : ١٠٧ نساء في مقابل مائة رجل . . وفي ١٩٣٩ كان ١٠٨ نساء في مواجهة مائة رجل . . أما في سنة ١٩٥٩ فقد بلغ عدد سكان الاتحاد السوفيتى ٢٠٨ ملايين نســمة من بينها ٩٤ مليون رجــل و ١١٤ مليون امراة . . ولو عاش العــالم ربع قرن آخر بلا حرب فان عدد الرجال سيصبح مساويا لعدد النساء . وربما زاد عليه . . وفي هذه الحالة يرتفع سعر المراة وتهبط قيمة الرجل . . كما هو الحال في استراليا ! .

وكان من الطبيعي ان تمسك الثورة مكاسبها . وان تحمي مجتمعها وأن تربط بين الناس . وتربط الناس، ولذلك رأينا في الاعمال الادبية تراجعها او رغبة في التراجع . . هذا الانفلات من قيود الاسرة، التي هي اساس المجتمع والحضارة . ففي رواية اسمها « ميلاد الانسان » للاديب بلتياك ظهرت ١٩٣٥ ـ نجد البطلة التي شعرت بالحمل تكتب مذكراتها فتقول : لم افكر في أن يكون لي ولد ولم اتصور انني سوف

اضيع وقتى فى انتظاره والاحساس به . كل ذلك بعيـــد عن خيالى لقد اجهضت نفسى قبل ذلك . وفى كل مرة الزم الفراش ثلاثة ايام . . وبعدها نعود الحياة . . ولكن هذه المرة لا اظن اننى سافعل ذلك . . ان مجرد كلمة : ماما . . تهز الدنيا كلها امامى . . »

وهذا يدل على ان المرأة تريد ان تكون اما . مهما كلفها ذلك وتريد ان يكون لها ابن ترعاه وتربيه . وأن تنام وتصحو على نغمة موسيقية واحدة خالدة هى : ماما . . .

ولكن فى العشرينات كانت الاسرة السوفيتية ماتزال تعانى من مشكلة (الحب الحر) . . . اى الحر من قيود الزوج أو المجتمع . فالمرأة قد تعذبت طويلا . وجاءت الثورة واطلقتها . . وفتحت لها الابواب . ولذلك فالمرأة لاتريد أن تضيع وقتها .

وفى رواية اسمها (الاسمنت) ظهرت سنة ١٩٢٥ للاديب جلادكوف نجد ان البطل يعود الى بيته بعد الحرب الاهلية . وكان يعلم ان زوجته كانت ضمن قوات الجيش الاحمر . حاربت وقاومت . وانتهت الحرب ولكن علاقة الزوجة بجنود الجيش الاحمر لم تنته . . وقد انجبت هذه الزوجة طفلا . اودعته احد الملاجىء ومات الطفل . . وعاد الزوج الى البيت ليجد هذه الورقة فى انتظاره . مكتوبا فيها : قررت أن تكون لى حياة خاصة . شكرا والى غير لقاء ! .

ولكن هذه الصورة تغيرت بعد ذلك . . فى رواية اسمها : (ماريا) صدرت سنة ١٩٤٦ للكاتب ميدنسكى . . نجد ان بطلها يعود من القتال ليجد أن زوجته تعمل مشرفة على احدى المزارع الجماعية . . وفى البيت يجد صورته معلقة على الحائط . ويمضيان ليلة سعيدة . . وفى الصباح يذهب كل منهما الى عمله . . اذن لقد عادت الاسرة الى تماسكها . وكل انسان الى موقعه من المجتمع . . لانه من الضرورى أن يكون له موقع . وأن يكون الموقع هو العمل . لان العمل حياة للفرد والمجتمع كله ! . . .

وقد اصدرت الثورة الروسية يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٧ أول قانون مدنى للزواج والطلاق . فقبل الثورة كانت الكنيسة هى التى تتولى الربط والفصل بين الناس . . أو الربط فقط !

وبصدور هذا القانون اصبح معروفا عند الناس ان هناك نوعين من الزواج المدنى والعرفى . اما العرف فهو مجرد التعايش بين اثنين ولا يكون للمراة اية حقوق قانونية . اما الزواج المدنى فهو المسجل قانونا ومن حق اى انسان بعد ذلك أن يتزوج دينيا ، قبل الزواج المدنى او بعده ولكن لابد من التسجيل بل ان هذا القانون قد أسرفوا فى تطبيقه لدرجة ان المواطنين جميعا طولبوا بالتسجيل . وكان الموقف محرجا لرجل عنده أحفاد . . كيف يذهب ليؤكد أمام المسجل انه تزوج من زوجته من ثلاثين عاما . وصدر قانون آخر يعتبر كل زواج صادر قبل هذا القانون شرعيا . . أى معترفا به على اساس الامر الواقع .

وفى حالة الطلاق يكفى ان يذهب احد الطرفين الى المحكمة . اما اذا

اتفق الاثنان على الطلاق فانهما يذهبان الى مكتب التسجيل ويتم الطلاق . وكان من الضرورى تسجيل الزيجات السابقة فى جواز السفر . .

وفى سنة ١٩٢٦ صدر قانون يلغى مهمة المحكمة هذه . ومكتب التسجيل يقوم بمهمة طلاق احد الزوجين من الآخر . .

◎❖◎

اما الاجهاض فكان القانون يعاقب عليه . .

وكان الاجهاض يتم سرا . وفى كثير من الاحيان يؤدى الى موت المراة أو تشويهها . وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٠ صدر قانون يلغى عقوبة الاجهاض ولكن الاجهاض استمر سرا ، لان المستشفيات

لاتتسع لهذا العـــدد الكبير . ولان المراة لاتريد ان يعرف احـــد ما اصابها . .

وفى ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٦ صدر قانون يحرم الاجهاض الا اذا كان الحمل خطيرا على صحة الام ، والا اذا كان هناك خوف من مرض وراثى – وفى ذلك يلتقى السوفيت مع كثير من الدول المتزمتة دينيا وهذا القرار قد اتخذه ستالين .

اما لماذا اتخذ ستالين هذا القرار فله قصة مضحكة .. نقد زاره قبل ذلك وفد من نساء منغوليا . كانت من بينهن واحدة تراس مزرعة جماعية قالت لستالين : ان عنـــدى سبعة من الاولاد . وكان تعليق ستالين . لو كان عندك سبعة آخرون لكان افضل

وتلاقت عيون النساء والرجال . ولم يفهموا المعنى . ولكن الخبراء عرفوا أن ستالين يريد زيادة فى النســـل فاصدروا القرار بمنع الاجهاض !! . .

ولكن هذا القرار الغى ايضا فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٥ . وابيح الاجهاض فقد ساءت حال كثير من الامهات .. خصوصا انهن كن يذهبن الى « دايات » وكانت الداية تستخـــدم اساليب بدائية فى اسقاط

الجنـين .. واصبح فى استطاعة اية مواطنـة ان تذهب الى اى مستشفى وتضع مولودها دون أن يســالها أحد : كيف ومتى ولمـاذا ومن هو ابوه ؟ . .

ولكن لسبب غير واضح مايزال الطفـل المجهـول الاب مشكلة ، فكل طفل لم تشأ الام ان تسجل اسم والده تجد شهادة ميلاده خالية من هذا الاسم . وانما يضعون فى هذه الخانة شرطة مثل هذه ——— .. ولذلك سيكون هؤلاء الاطفال : اطفالا بشرطة !

وقد تقدم عدد كبير من الادباء والفنانين يطلبون من الدولة الغاء هذه

الشرطة . تقدم الاديب ابهرنبورج والموسيقار شاستاكوفتش وغيرهما . ولكن بقيت الشرطة فى مكانها .

اما الدولة فهى حريصة على ان يكون الاب والام لكل طفل . بل انها تشجع على زيادة النسل . وتعين الاسرة ذات العدد الكبير . والام التى عندها عشرة أطفال تعطيها الدولة لقب : الام البطل . . اما المساعدة فهى لكل طفل ولمدة ثلاث سنوات . . من السنة السابعة حتى العاشرة . . وأكثر الامهات اللاتى يفزن بالنياشين والالقاب بسبب كثرة الاطفال فانهن من الجمهوريات السيوية . . ازبكستان مثلا . . ولا ترى الاسرة فى ذلك عيبا ويقولون ان تولستوى نفسه كان عنده احد عشر ولدا . . والعالم مندليف كان واحدا من أحد عشر اخا .

ولكن المراة السوفيتية تعمل فى كل مكان . .

بعض الرجال قد اعترضوا على ان تعمل المراة فى المناجم . ولكنها تعمل . . وفى المعرض السوفيتى الذى اقيم فى يناير سنة ١٩٦١ عرض الفنان تروخاتوف لوحة كبيرة لفتاتين تحملان فوانيس عمال المناجم .

صحيح ان هناك قوانين تمنع المراة الحامل من ان تحمل الاثقال اومن العمل ليلا ، ولكنها تعمل .

⊙❖⊙

اما اذا كانت المراة قد وضعت طفلا فبعد ثلاثة شهور بالضبط يجب ان تعطى طفلها لاحدى دور الحضانة . . اما اذا كانت تعمل ليلا ، فتتركه ينام هناك أيضا . وفى سن مبكرة يتعلم الطفل الروسى ، مايتعلمه بقية اطفال العالم فى سنوات . . انه بعد سنة يستطيع ان يجلس على (القصرية) . . وبعد ستة شهور اخرى يستطيع ان يتناول طعامه وحده . .

وبعد ساعات من ولادة الطفل يذهب الاب ليراه ، ثم لايرى زوجته الا بعد اسبوع خوفا على الطفل من العدوى . . وكثيرا ما ارتدى

الآباء ملابس الاطباء ليتمكنوا من رؤية الزوجة والطفـــل .. فاذا ضبط الاب ، عاقبوه .

⊙❖⊙

اما وظيفة القضـــاء فعندما تشكلت المحكمة السوفيتية فى ابريل سنة ١٩٥٢ كان أعضاؤها اثنى عشر عضوا .من بينهم سيدة واحدة. ولهذه المحكمة ٤٥ مستشـــارا من بينهم اثنتا عشرة سيدة . . اربع منهن مسلمات !

واصبح يوم ٨ مارس عيـــدا للمرأة . . صحيح ليس عيدا بالمعنى المعروف وانما مسموح لها فقط أن تنصرف من عملهـــا قبل الموعد بساعتين ! .

وما دام المجتمع الســـوفيتى مفتوحا على العالم ، اوالعالم مفتوحا على روسيا . . فالرجال يرون ويقارنون والمرأةأيضا . ولابد أن تلبس وان تراعى ــ الموضة أن تضع الاحمر والابيض . لم أجد سيدةواحدة قد رسمت عينيها ! ولابد ان تهتم أيضا بتصفيف شعرها . . وفى موسكو محلات لمشاهدة عروض الازياء . . وعلى كل واحدة أن تختار الموديل الذى يعجبها . . ان المرأة تريد ان تكون انثى . . أن تكون مرغوبة . . مطلوبة . . مثيرة . . أن تكون اكثر نعومة . . فليس من الطبيعى ان تكون لها خشونة الرجل . . وهى تعلم أن الرجال يفضلونها ناعمة . .

وقد رفضت سيدة أن تخرج الى الشارع وفى فمها سيجارة . . ان هذه السيجارة تفقدها انوثتها !

وفى رواية اســـمها « غصن الزيتون » ظهرت سنة ١٩٦٥ للكاتب برزينوف تقول فيها البطلة : أريد ان أصنع اكلة لذيذة ويقول أبوها فى فزع تعودين الى المطبخ .

ــ أتمنى »

وعملك وابحاثك . .

ـ لاتهمني الى هذه الدرجة . .

وفى رواية أخرى اسمها «العقدة» ظهرت قبل ذلك سنة ١٩٥٩ للكاتب فاسيلفسكى . البطلة اسمها تاتيانا تعمل طيارة . تعبت من هذه المهنة فقالت : ليس من الضرورى أن يظل الانسان وحيدا طول عمره . يمشي وحده يستند الى قدمه . . لا أحد الى جواره . وليس من الطبيعى ان تظل المراة تعمل طول حياتها ، الا اذا كانت تريد ان تعتمد على نفسها . . ولكن من الضرورى أن يكون لهـا اطفال . . أن يكون لها بيت . أن تكون هى لهذا البيت وان تجعل اطفالها يشعرون أن لهم أما . .

اما اذا عاكستك فتاة فى الشارع ، ولم تجد اللغة هى المانع الطبيعى ففى العواصم عدد من بنات الشوارع . . وهذا موجود فى كل عواصم الدنيا . . ولكن هذا العدد ليس كبيرا فكل النساء يعملن . ثم ان هناك مشكلة السكن . . لاتوجد شقق خاصة . . ولا اماكن تصلح لاستقبال الزبائن . فالسكن ازمة ومشكلة رغم العمـــارات الهائلة التى تنهض فى كل مكان . .

ولذلك من الطبيعى ان تتفجر من هـذا الموقف النكتة السوفيتية المعروفة . . يقال أن الروس عندما اطلقوا اول قمر صناعى بداخله جاجارين . تطلع الروس الى السماء . . واستطاع بعض الناس أن يروه بالعين المجردة فكانوا يقولون : ما اسعده . . انه يسكن وحده !



في السماء
كواكب
يسكنها
الإنسان الأخضر



الايمان بالمستقبل دين . والدين افيون الشعوب ، شرقا وغربا .

وليست كلمات : الخطة والمشروع والخطة الخمسية الاولى والثانية ومشروع العشر سنوات ، الا كلمات دينية . وهذه الكلمات قائمة على : ان الانسان اصبح قادرا على أن يرى ابعد من اليوم والغد .. وأنه اصبح يضمن بصورة علمية ماسوف يحدث أو يضمن بصورة مضمونة ماسيقع غدا او بعد غد .. ولم يعد الواقع ان تحسب حاضرك وانما أن تحسب مستقبلك أيضا . ودراسة المستقبل هي استدعاء السنوات القادمة واصدار الاوامر اليها بأن تكون على النحو الذى نريد .. أو الذى نحلم به .

ولينين ابو السوفييت قد طلب الى شعبه ان يحلموا . وقال : من الضرورى ان تحلموا . بل يجب ان تحلموا . فالذى يبدا عملا ثم لا يتخيل نهايته ، أو نهاياته المختلفة ، فلن يحقق شيئا كبيرا فاحلموا !

ومعظم الاختراعات والاكتشافات الكبرى حققها اناس حالمون . ان الرجل الذى اخترع الصواريخ السوفيتية فى نهاية القرن الماضى كان من أكبر الحالمين لقد تخيل الحياة على القمر . وادرك ان الحياة على

القمر غير ممكنة . وانما الحيـاة سوف تكون تحت سطح القمر . .
وكان ذلك مجرد حلم . والعلم الحديث يؤكد بان هذا ماسوف يحدث .

٭٭٭

وقد اصدر السوفييت كتابا عن المستقبل اسمه « العالم سنة ٢٠١٧ » اى العالم عندما يحتفل السوفييت بمرور مائة عام على الثورة السوفيتية وقد لمس الكتاب كل مايخطر على بال المواطن السوفيتى والمواطن العالمى : حياته فى بيته ومع اهله والشوارع والمدن .. حتى طريقة الكتابة . وكيف ان الانسان فى المستقبل لن يجد نفسـه فى حاجة الى ان يكتب وانما ان يملى . . وهذا ماكان يحلم به تولستوى العظيم الذى كان يطلب من الكاتب ان يكون سهل العبارة . وكان يشطب كثيرا جدا . ولو عرف هذه الآلة التى يضعها الانسان فى جيبه لايدع للانسانية الكثير .. ولاستراح ذلك العبقرى دستويفسكى الذى املى اعماله الكبرى على زوجتـه المريضة فأرهقها وضاعفت من ويلاتها الجسيمة أيضا . وكذلك الرحلات الى الفضاء الخارجى . .

حتى الحب فى المستقبل . هل سيكون هناك حب ؟ كيف يكون ؟
هل من الممكن ان يعيش الانسـان بلا حب ؟ . . كل أنواع الحب . .
وما اهمية الحب فى حياة الناس فى القرن الواحد والعشرين وبعد ذلك ؟ .
هل سيكون هناك هذا النوع من الحب الذى عرفته العصور الوسطى ؟
هل سيكون ذلك الحب العذرى الذى عرفه العرب ..

هذا الكتاب يؤكد لنا مانعرفه : وهو ان الحب علاقة معقدة سرية سحرية عجيبة . وليس من السهل ان نعيش من غيره . الانسان لم يستطع ولن يستطيع .

يقول لوناشرسكى الروسى : اذا تخلصت الانسانية من متاعب العمل ومن ذل العبودية ، فسـوف تصبح قادرة على أن تخلق من الحب

والجنس علاقات رائعة سعيدة ، وسوف تجعل من الاثنين متعة لم تعرفها الاجيال ، ولا كانت تحلم بها . .

اى ان الحب سوف يكون مأدبة ضخمة تضم كل أنواع الهمس الهندى والهيام العربي والعشق الأغريقي . والفروسية الاوروبية . واحترام الحرية الفردية .

ويقول الكتاب أيضا : ان الحب يحقق للانسان اليوم اعظم لذة وسعادة اذا مافورن بالعواطف الاخرى . ومن الطبيعى ان نمجد الحب . . ولكن اذا ظهرت فى الحياة اشياء أخرى تبعث على البهجة فمن المؤكد ان وهج الحب سوف يخبو قليلا . واما لماذا نمجد الحب ونقدسه فهناك سببان : الاول هو الحب نفسه . . والثانى هو هذا التعب والملل والقرف الذى يعانيه الانسان فى حياته اليومية . والحب هو نوع من التعويض اللاشعورى لفقدان السعادة فى أشياء اخرى كبيرة . .

ولا شك فى أن دور الحب فى حياة الانسان سوف يكون قويا كما كان دائما . . على الرغم من أن الحب يحتوى على شىء من التناقض . فالذى يحب يقبل الذل ويقبل الامتلاك ويقبل الاحتكار . بل يقبل العبودية . . ثم ان الحب نفسه يبدد الطاقة الانسانية ، على حساب كثير من الالتزامات الاخرى الحيوية — انني ما أزال انقل من الكتاب . .

والحب لن يمشي فى خط مستقيم لان العلاقات الانسانية ليست سهلة ولا هى تمشي فى خط مستقيم ايضا . . ولن يكون الحب نايا ومزمارا وراعيا للغنم فقد انتهى عصر الرعاة فى العالم . .

وسوف يكون هناك هذا الفارق بين الجنسين فى الحب وفى العلاقات الجنسية أيضا . وسنجد ان الحب عند المرأة من الممكن أن يظهر بوضوح بعد الزواج أو بعد ميلاد الطفل الاول . فالحب عند الفتاة عادة حب عذرى . وعند الرجل حب واقعى . وستبلغ المرأة أوج

رغبتها فى سن متأخرة ، عندما تبدأ هذه الرغبة فى الضمور عند الرجل ولكن مهمـا تقـدمت سن الرجل ، ومهما ضعفت قدرته فسيظل عاشقا دائما . .

وسوف تتزايد المتـاعب بسبب هذه الفوارق بين الجنسين . ولكن الناس سيتعلمون كيف يخففون اضطرابهم . وبمرور الوقت سوف يتحسن الجسم الانسانى ولكن هذا الوقت ليس عاما ولا قرنا وانما عشرات القرون . .

سؤال عن الشخص الثـالث فى حياة الزوجين : هل سيكون هناك شخص ثالث فى حياة الزوجين ؟ او بعبـارة اخرى هل سيكون هذا « الثلاثى » (التقليـدى) موجودا ؟ . . اى الزوجان والعشيق او العشيقة ؟ يقول انجلز : ان الخيانة كالموت لاعلاج لها ! ويقول الكاتب : أن هناك آخرين لهم راى آخر . .

ومن المؤكد أن الحب والكراهيـة والوفاء والخيانة ، عواطف لم يناقشها الانسـان تماما . ولكن غيرت بعض مفهوماتها . كما تغيرت أشياء كثيرة فقد كان الانسان يتصور ان الارض مركز الكون . وهو الآن يعلم أن الارض ليست مركزا لهـذا الكون . وكان يعتقـد أن اشعة الشمس مستقيمة وهو يعلم ان اشعة الشمس موجات ، والموجات يستحيل ان تكون مستقيمة .

وكذلك الزواج لم يعد بالاكراه : ولاالطلاق أيضا ، وكثيرمن الاشياء الثابتة الجامدة ، لم تعد كذلك . وسوف تنظر الاجيال القادمة الى الحب بسهولة وبلاخوف . وسوف يدرس الاطفال فى مدارسهم كل العلاقات الجنسية بلا خوف . وسوف يكون الحب نفسه بلا خوف من الحمل . .

هل ستكون هناك اسرة قائمة على حب واحد . . أى على زوجة واحدة ؟ . . لقد كانت الاسرة المتماسكة من اهم عوامل تطور الانسان

ولكن ربما ظهرت في المستقبل اشكال اخرى للاسرة . وربما ظهرت علاقات متعددة وان كان الحب بطبعه يميل الى الدوران حول واحدة فقط . وسيبقى الحب صعبا معقدا . ولكن سيكون الانسان الذى يحب ، هو الانسان حقا .

وما دام عصر الانسان سيطول فى المستقبل ، فان حبه سيطول ايضا .

◎✤◎

والمواطن الروسى قد تدرب على ان يقرا كف المستقبل . وان ينظر اليه بوضوح ويقين .. انه يشبه المحامى الامريكى التليفزيونى بيرى ماسون الذى ينهى كل حلقة بقوله : والان سيداتى وسادتى هذا هو الرجل الاعرج الذى قتل الفتاة الجميلة وهى تستحم ليلة السبت فى الساعة السابعة واربع دقائق تماما !

ولكن ستبقى بعض المشاكل الاخرى بلا حل سريع .. لصعوبتها . ولان العلم الحديث لن يبلغ نهايته بعد مائة سنة أو بعد الف . مثلا : ما قول علماء الفضاء فى مشكلة « الناس الصغار الخضر » ؟

هؤلاء « الناس » الذين يعيشون فى كواكب اخرى، بعيدة عنا ولا ندرى عنهم اى شىء . ولكن العلم الحديث لا يستبعد ، بل يرى من المؤكد ، ان هناك كائنات أخرى أعقل وأذكى فى اماكن اخرى من الكون الشاسع ..

ان العلماء مختلفون : هل نتصل بهم او لا نتصل ؟ اى أن الخلاف ليس على وجودهم ، ولكن على الاتصال بهم . وهذا التردد سببه الخوف على الحضارة الانسانية ..

وحتى لايتحول كلامى الى سحاب غامض فى ليلة مظلمة فاننى اعود الى الكتاب وانقل حرفيا هذا الحوار التاريخى الخطير الذى دار بين مراسل احدى الصحف الايطالية وبين العالم البريطانى الكبير

انتوني هويش . ثم ما الذى قاله العالم السوفيتي ستاف نان عضو اكاديمية العلوم .

سؤال : نحن نعرف انك أستاذ جادى ، ولست حالما او خياليا روائيا فلماذا ما تزال تتحدث عن « الناس الخضر الصغار » او هؤلاء الاقزام ذوى اللون الاخضر ؟

جواب : لا تنس اننا بشر ايضا من حقنا ان نحلم . وان نتمنى وان نفكر .. فقد استمعت الى اشارات ترد الينا من الفضاء الخارجي . واطلقت على هذه الاشارات اسم : اشارات الناس الصغار الخضر اللون .. والحقيقة ان هذه الاشارات تجيء الينا من مصدر واحد بعيد جدا . ولها ذبذبة واحدة لم تتغير . وهي بالتقريب ثانية . او بالضبط ١٫٣٣٧٧ ونحن لا نعتقد انها ظاهرة طبيعية . وانما يجب ان نتصور انه حيث تصدر هذه الموجات فهناك من يصححها باستمرار ولابد انه قد دخل فى اعتباره حركة الاجسام السماوية التى تصدر عنها هذه الموجات . وعندما سجلت هذه الاشارات شعرت بالفزع . نعم بالفزع ، ولذلك قررت ان اجمع كل هذه البيانات والتسجيلات واحرقها فورا . وظللت فى حالة من الرعب اسبوعا لا اعرف كيف افكر ولم استطع أن انام . اما مساعدتى الآنسة بل فقد اكتشفت مصدرا سماويا آخر لهذه الموجات ، يشبه تماما مصدر اشارات الناس الخضر ثم اهتدينا الى مصدر ثالث .. وشعرنا بالارتياح ..»

سؤال : تقول شعرت بالارتياح ، ولكن لماذا ؟

جواب : لسبب بسيط وهو انه فى استطاعتنا ان نقول : اننا امام ظاهرة مجهولة تحتاج الى تفسير ..

سؤال : سمعتك تقول انك خفت وان فزعا أصابك ، فما الذى افزعك واخافك ؟ هل هناك شيء اسمه الخوف فى العلم ؟

جواب : سيدى العزيز ، انني اخاف دائما من المجهول . انني اخاف من هؤلاء الناس الصغار الخضر . ولا أزال اخاف من اهل الارض الذين يريدون الاتصال بهم ، واخاف عليهم ايضا .

سؤال : هل معنى ذلك انه لو كانت هناك حضارة اخرى بعيدة تريد الاتصال بنا ، وارسلت هذه الاشـــارات فانك تخاف ان ترد عليها ؟

جواب : هذه مشكلة خطيرة جدا . وحل هذه المشكلة ليس من اختصاص علماء الفلك . وانما من اختصاص الصحفيين والساسة . عليهم ان يتناقشوا فيما بينهم ، هل نرد على الحضارة الاخرى او لا نرد ؟ هل نتصل بهم او نخفى رؤوسنا بين ايدينا .. ويجب أن ندرك بوضوح ان ارضنا فى هذا الكون ، ليست ســوى ذرة رمل على شاطىء هائل . وان هناك ملايين الرمال حولنـــا . واذا نحن فرضنا أن هناك حضارات اكثر تقدما ، ولا نعرف عنها شيئا ، فمن الحماقة ان نبعث لها بأية اشارات ، دون ان نعرف كيف يكون رد الفعل عندهم ! بل من الجنون الاكيد أن نكشف لهم عن انفسنا ، أن نلفت عيونهم او آذانهم الينا .. ليس من الحكمة أن نكشف انفسنا لكائنات اخرى لا نعرف عنها الا انها اقوى واذكى واكثر تطورا !

سؤال : ولكن الكثير من زملائك علماء الفلك يفعلون العكس . انهم يحاولون ان يقنعونا دائما بأن التقدم العلمى ضرورى . ومرغوب فيه ، وان التقدم العلمى هو وحده الذى يحقق الرخاء للانسان . وان حرصهم على التقدم هو الذى يدفعهم الى البحث عن مصادر جديده للمعرفة ..

جواب : اسمع ياسيدى : ان الفلاح فى فيتنـــام قد عرف الآن شيئا جديدا .. عرف ان هنـــاك دولة أقوى واكبر واكثر تطورا تساعده بلا تردد فماذا كانت النتيجة ؟ .. من الافضل لنا ياسيدى الا نكشف انفسنا لهذه الحضارة الهائلة المخيفة !

سؤال : هل أفهم من هذا أن علماء الفلك الذين تعجلوا فأرسلوا اشارات الى الفضاء الخارجى ، لم يدركوا حقيقة هذا الخطر ؟

جواب : من المؤكد انهم اخطأوا . لان هذه المشكلة يجب أن تناقش دوليا وبعد ذلك يجب أن نوقع العقوبة على كل من يخالف الاتفاق الدولى على عدم الاتصال .. كأن نطرده من ميدان العلم والعلماء

سؤال : ولكنى استطيع أن اقول ان هناك عددا من العلماء يفعلون ما يحلو لهم ، دون أن يكترثوا كثيرا لهذه التحذيرات .. لابد ان لهم وجهات نظر اخرى .. ولكن اريد أن أسألك هل هنـــاك اى أساس علمى للاعتقاد بأن نجوما فى هذا الكون تسكنها كائنات اخرى أكثر تحضرا ؟

جواب : انا لا اعرف شيئا عن هذه النجوم . ولكن من المؤكد ، بل من المقطوع به علميا ، ان هناك كواكب اخرى بعيدة ، تعيش عليها كائنات اكثـــر عقلا وذكاء . بل اقول اكثـــر من ذلك : ان نظرية الاحتمالات سمحت لنا بأن نأمل ان يتصلوا بنا ، أو نتصل نحن بهم ، أن نعثر عليهم ، أو يعثروا هم علينا !

سؤال : سيدى الاستاذ هل تعتقد ان هـــذه الاشارات التى سجلتها أنت عبارة عن رســـائل موجهة لنا ، واننا لم نهتـد الى معناها ؟

جواب : هذا مؤكد . ونحن الآن ندرس مجال هـــذه الاشارات التى تلقيناها ، لعلنا نعثر على طريقة لتفسيرها .. ولا نهاية لما يدخره لنا المستقبل من المفاجآت !

انتهى اخطر حوار مع أكبر علماء الفلك فى القرن العشرين ولا يزال أصحاب الاشارات الغريبة ، مصدر الدهشة والخوف لكل علماء الفلك والفضاء ..

واعود مرة اخرى الى كتاب « العالم سنة ٢٠١٧ » وانقل مناقشة الاستاذ جوستاف نان عضو اكاديمية العلوم السوفيتية . انه يبدا مناقشة الاستاذ هويش بأن يقول اننا لا نعرف بالضبط ان كانت الاشارات من مصدر مادي أو انساني .. اى مصدر شيء ما او كائن ما . ويضرب لذلك مثلا انه حدث منذ سنوات ان التقطت اجهزة استقبال الارض صوتا من بعيد .. وبعد ذلك اكتشف العلماء ان مصدر الصوت ليس الا نوعا من الاجسام الفلكية الهائلة المتناثرة .

ويقول البروفسور نان : اما في حالة « الناس الخضر » فلا يمكن ان يكون المصدر شيئا . نظرا لان الموجة قصيرة ولانهـا منتظمة . ولذلك فمن المؤكد علميا أن لها مصدرا عاقلا حاسبا عظيما ..

والسؤال الخطير هو : هل نرد على هذه الاشارات أو لا نرد ؟

اى انه لا خلاف على وجود كائنات اعقل ، ولكن هناك خوفا من الاتصال بها ، او اتصالها بنا . وامام هذه المشكلة لابد من ان يكون هناك عدة احتمالات جعلتهم يبعثون هذه الاشارات .

ربما كان سبب ذلك انهم « يفهموننا ويهتمون بنا » .. وانهم يريدون أن يحذرونا من اخطائنا القاتلة : تلوث جو الارض وتسمم مياه الانهار وخراب هذا الكون . ربما كان ذلك . ولكننا نحن نفهم اكثر من اى احد ، ان عالمنا مسموم واننا نعيش فى قنبلة زمنية . ونعلم اننا لم نستفد من اخطائنا . ويبدو اننا نفضل الحياة بهذه الاخطاء والصعوبات ، وان الورد من غير شوك ، كما يقول المثل ، ليس وردا ، ان الارنب لكي ينمو ويقوى يجب ان يطارده الذئب . ثم أن العلم اذا اصبح سهلا جاهزا ، فقد يؤدى ذلك الى عدم اهتمامنا بالعلم نفسه ..

وهناك احتمال آخر : ان يكون اهل هـذه الحضارة البعيدة « يفهموننا ولكن لا يهتمون بنا » ربما كان ردهم على اشاراتنا لصالحنا

ولكن الامر لايهمهم او اننا لانهمهم . هذا ممكن . وربما كان ذلك مهينا لنا وسبب ذلك انهم سبقونا بالوف السنين . وانهم ينظرون الينا بنفس نظرتنا الى النمل . الذى نصفه احيانا بان له عقلا او غريزة تنظيمية . وعلينا ان نتساءل : ما الذى يمكن ان نعمله للنمل مثلا ، وما الذى يمكن ان نحذره منه !

وهناك احتمال ثالث ان يكون اهل هذه الحضارة البعيدة « يهتمون بنا ولكن لايفهموننا » . ربما كان اهتمامهم بنا لاسباب تتعلق بظروف التغذية عندهم .. او البحث عن موارد اخرى للطعام . ولكنهم لايفهموننا ولا يعرفون كيف .

اما الاحتمال الرابع فهو انهم « لايهتمون بنا ولا يفهموننا » — يقول البروفسور نان : ولكن يجب استبعاد هذا الاحتمال . لانهم بالفعل يطلقون اشارات قصيرة منتظمة . اما هذه الاحتمالات : فاولها مامون وثانيها : مهين ومامون وثالثها : خطير ومحير .

يقول ايضا البروفسور نان : قد يظن القارىء انني اتردد او اعارض فى الاتصال بهؤلاء الناس الخضر ، بالعكس . بل اری من الضرورى الاتصال بهم والاتصال يساوى مانبذلهمن جهد . فزيادة المعرفة هي وحدها التى تمكننا من القضاء على الملل والهوان والخوف . واذا كانت لدى اية حضارة اخرى وسائلها العلمية للاهتداء الينا فليس فى الامكان ان نهرب منها ، ولكن ليس هذا هو المهم فالانسان حريص دائما على توسيع مجال اتصاله ، لان هذا هو الذى يدفعنا الى التطور فهذه الاتصالات ضرورية ومطلوبة بقدر ماتثير الفكر وبقدر مايكون الذين نتصل بهم اكثر اختلافا — فليكن لونهم اخضر حقيقة !

واذا نحن افلحنا فى الاتصال بكائنات اخرى كونية — ومن المؤكد انها اكبر عقلا ففى وسعنا ان نفهم وضعنا فى هذا الكون . ومكاننا من السلم الكونى . فاذا ما تغير هذا السلم او هذا المجال ،

فلابد أن يكون لكل شيء معنى آخر جديد مختلف . وسوف تصبح الاشياء « الاكيدة المؤكدة » فى حياتنا والتى تفسر حياتنا وتاريخنا ، عبثا وهراء فى المجال الكونى . . والعكس بالعكس ربما كانت هذه هى الفائدة الاولى من مثل هذه المناقشة او الحوار . ومن الناحية النظرية فمن الممكن أن نقول ان سلم التطور لانهاية لدرجاته وإذا نحن تصورنا ان التطور الانسانى قد بلغ نهايته ، فنحن نغالط انفسنا ونخدعها . وكل ما نفعله هو ان نحمى انفسنا . وهذا بمقاييسنا العادية معقول ومنطقى . والديناصور ذلك الحيوان المنقرض ، كان هو أيضا يحمى نفسه ولو نجح الديناصور فى ذلك ، ماكان هناك انسان حى الآن ، ولو ظل الديناصور وحده على الارض يقضى على كل حياة أخرى لكان نوعا من التعفن والجمود فى الطبيعة . والطبيعة لاتمثل شيئا مثل الجمود والتعفن . .

ويختتم الاستاذ نان مناقشته بقوله : انا من الذين يؤمنون بأن الهرب من المعرفة والعلم ، لا يؤدى بنا الى شيء . ولو قررت الكائنات الاخرى الاعقل الاتصال بنا حتى اذا لم نشأ ذلك ، فليس فى استطاعتنا أن نتوارى منها . وفى امكاننا أن نتعلم منها الكثير من الاشياء الهامة والضرورية لنا . ومن يدرى ربما قالوا لنا : ان الانسانية لها مستقبل طويل أمامها . وأن الزمن المخصص لنا فى تاريخ هذه الارض لم ينته بعد . واننا مانزال ناقصين وبعيدين تماما عن استنفاد كل امكانياتنا التى ولدتها تطوراتنا الاجتماعية . وفى استطاعة الانسان ان يتأكد من اشياء اخرى : مثلا أن يتم التفاهم بيننا وبين هذه الكائنات الاخرى بينما هذا التفاهم لم يتحقق بيننا نحن سكان الارض حول المشاكل الصغيرة والكبيرة ، الاجتماعية والعنصرية ، ولكن على الرغم من هذا كله فان شعوب العالم تتزايد وحدتها وسلامها وتفاهمها . حتى اذا ماواجهنا حضارة سماوية اخرى ، جعلتنا نفهم وضعنا الحقيقى ، فسيؤدى ذلك ولاشك ، الى أن يتأكد لدينا هذا المعنى : ان كل الناس اخوة . . وان تجربة الاتصال بهم تساوى مابذلنا فى سبيلها من تعب وسهر !»

وقد تقول مالنا ومشاكل القرن العشرين . ومعك حـــق فما اكثر مشاكلنا الان . ولكن هذه ايضا مشـاكلنا الان .. ثم ان كل سبعة من كل عشرة من سكان الارض سوف يعيشون حتى أوائل القرن الواحد والعشرين .. فأبناء القرن العشرين هم اغلبيـــــة بيننا ! ومن العدل ان نشاركهم مشاكلهم ، كما اننا اغرقنـــاهم بمشاكلنا ..

ولن يكون المستقبل هكذا مخيفا كئيبا .. لن تكون الحياة كلها هما وغما وتطلعا الى السماء مصدر الكائنات الاخرى الخطرة المخيفة

وانما من الممكن ، ومن الضرورى ، أن نواجــه الارض والسماء بالابتسام بالمرح . بالضحك . فمن الطبيعى ..

وهذا هو الفصل الاخير من الكتاب وفى الكتاب عينات من نكت المستقبل ايضا !!

واذا كان الضحك يقتل ، فانه يداوى ايضا ـ كما يقول الكتاب. وقد بحث الكثيرون من الفلاسفة ظاهرة الضحك وضرورته .. ولم يهتدوا الى رأى قاطع ... ولكن يبقى الضحك ظاهرة حيـــوية وضرورية دائما !

« والضحك يدل على السمو المعنوى فأنت عندما تضحك على شيء ما ، فمعنى ذلك أن تقول لنفسك : لايمكن أن أرتكب مثل هذه الحماقة .. والمرح يقرب بين الناس ويجعلهم اكثر تفـاؤلا ... ثم ان الضحك يبعد عنك الطبيب .. هذه نصيحة » ...

فليس من السهل أن يتغير الانسـان كانسان ، فى عام أو ألف ... ولذلك سيبقى الانسان يحب ويكره ويخاف ويحلم ويضـحك فى النهـــاية ...

ثم هذه النكتة : يقال ان احد العلماء اخترع عقارا ينقل الانسان من الحاضر الى المستقبل . وفى المستقبل يرى كل مايتمناه .. وقد

اعطى هذا العقار لاحد سائقي التاكسي والتف حوله العلماء يسألونه بعد ان تركوه ساعة : ماذا رايت ؟

ولكن الرجل لايرد ..

وركعوا عند قدميه : لاتنس خطورة المهمة التي تقوم بها .. نريد ان نعرف والشعب السوفييتي كله يريد أن يعرف كيف رايت المستقبل . ان جارك قد اعطيناه العقار فرأى نفسه حاكما للمريخ .. وان هذا الجار قد اعطيناه العقار فراى نفسه رئيسا لسلاح الطيران فى كوكب الزهرة .. فماذا رايت ؟

ولكن الرجل لايرد . واخيرا قال :

لقد وجدت نفسي وزيرا !

وهلل العلماء .. راحوا يعانقونه وهم يطلبون المزيد : ثم ماذا رايت ..

فقال : اسوا ما فى هذه الدنيا .. لقد رايت زوجتى ما تزال تفتش فى جيوبى !



كتب للمؤلف

(١) مؤلفــــات :

- وحدى .. ومع الآخرين *
- عذاب كل يوم *
- طريق العذاب *
- الوجــــودية *
- بقايا كل شيء (الطبعة الثانية) مجموعة قصص *
- مع الآخرين *
- يوم بيوم *
- عزيزى فلان (الطبعة الثانية) مجموعة قصص *
- يسقط الحائط الرابع (الطبعة الثانية) *
- كرسى على الشمال *
- ساعات بلا عقارب *
- قالوا (الطبعة الرابعة)
- وداعا .. أيها الملل (الطبعة الثانية) *
- ألوان من الحب (الطبعة الثانية) *
- مدرسة الحب *
- من نفسي *
- شارع التنهدات *
- الخبز والقبلات *
- الحائط والدموع *
- من اول نظرة (دراسات فى الجنس والحب والزواج) *

- هى .. وغيرها (مجمـوعة قصص) .
- حول العالم فى ٢٠٠ يوم (الطبعة السابعة) .
- اليمن .. ذلك المجهول .
- بلاد الله . خلق الله (الطبعة الثالثه) .
- الذين هبطوا من السماء !
- دراسات فى الأدب الامريكى .
- دراسات فى الأدب الايطالى
- من روائع الأدب الايطالى .
- حلمك يا شيخ علام (مسرحية كوميدية) .
- مين قتل مين (مسرحيـــة كوميدية) .
- الاحياء المجاورة (مسرحية كوميدية) .
- جمعية كل واشكر (مسرحية كوميديه) .
- تلك الأيام .

(٢) مترجمـــات :

- قصص ايطالية .
- هذه الصغيرة وقصص أخرى .
- رومولوس العظيم (مسرحية كوميدية) لديرنمات .
- هبط الملاك فى بابل (مسرحية كوميدية) لديرنمات .
- زواج مسسبى (مسرحية كوميدية) لديرنمات .
- أمير الأراضى البور (مسرحية) لماكس فريشى .
- بعد السقوط (مسرحية) لارثر ميللر .
- الامبراطور جونز (مسرحية) ليوجين أونيل .
- فوق الـكهف (مسرحيـة) لتنسى وليامز .
- من أجل عينيها (مسرحية) لجيرورو .
- المثقفون .

- خواطر وأحاديث ... ... احمد حسن الباقوري
- فنان فى باريس ... ... فتوح نشاطى
- بلاد الله .. خلق الله (طبعة ثالثة) ... ... انيس منصور
- النساء لهن اسنان بيضاء ... ... احسان عبد القدوس
- أيام لها تاريخ ... ... احمد بهاء الدين
- الغاضبون ... ... كامل زهيرى
- مصرى فى فيتنام والصين وكوريا ... ... احمد حمروش
- القمر فى انتظارنا ... ... مجدى نصيف
- أم كلثوم التى لا يعرفها احد (طبعة ثالثة) ... ... محمود عوض
- رجل من طين ... ... سعد مكاوى
- حقيبة فى يد مسافر ... ... يحيى حقى
- ليلة نام فيها الشيطان ... ... محمد التابعى
- القرآن فى شهر القرآن ... ... د. عبد الحليم محمود
- الكأس الاخيرة ... ... ابراهيم المصرى
- لست مسيحا اغفر الخطايا (طبعة ثانية) ... ... محمد زكى عبد القادر
- يحدث فى الليل فقط ... ... امين يوسف غراب
- طويل يا زمن ... ... عبد المنعم الصاوى
- شخصيات عربية معاصرة ... ... ابراهيم البعثى
- شيوعيون فى كل مكان (الجزء الاول) ... ... موسى صبرى
- حين يميل الميزان ... ... ثروت اباظة
- صالة النجوم ... ... محمد التابعى
- قلت ذات يوم ... ... توفيق الحكيم
- الشيطان لعبته المرأة والمرأة لعبتها الرجل ... ... احمد الصاوى محمد
- الجديد فى مرض السكر ... ... د. جمال الدين غوردون
- مشهورون منسيون ... ... فتحى رضوان
- اسلاميات ... ... خالد محمد خالد
- العالم من ثقب الباب ... ... كامل زهيرى
- نوتة نوتة ... ... احمد رجب
- موعدنا بعد غد ... ... عبد المنعم الصاوى
- حياة قلب ... ... احمد الصاوى محمد
- امهات لم يلدن ابدا ! ... ... يوسف جوهر
- شيوعيون فى كل مكان (الجزء الثانى) ... ... موسى صبرى
- يوميات مصرية ... ... ابراهيم الورداني
- بنت اليوم ... ... محمود تيمور
- صور مقلوبة (الطبعة الثانية) ... ... احمد رجب
- ابتسامات على البلاج ... ... حسين القبانى